

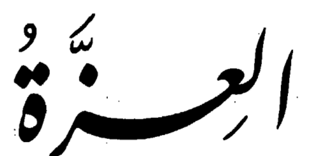
أنواعها - أسبابها - مظاهرها - آثارها

محمد إبراهيم على الله آل لطيف

راجعه وقدم له

الدكتور مانع بن محمد بن علي المانع

بسم الله الرحمن الرحيم



العزة

أنواعها - أسبابها - مظاهرها - آثارها

العِزَّةُ

أنواعها - أسبابها - مظاهرها - آثارها

محمد إبراهيم على الله آل لطيف

راجعه وقدم له

الدكتور مانع بن محمد بن علي المانع
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة بالرياض




فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
آل لطيف، محمد إبراهيم على الله
العزة (أنواعها-أسبابها-مظاهرها-آثارها)- الرياض
١٦٠ص ١٤ء٢٠سم
ردمك: ١-٨٧١-٤٤-٩٩٦٠
١- الإسلام-مجموعات ٢-الوعظ والإرشاد أ. العنوان
ديوي ٢١٠,٨   ١٤٢٥ / ٢٢٦٩

رقم الإيداع ٢٢٦٩ / ١٤٢٥

ردمك: ١-٨٧١-٤٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م

تقديم

الحمد لله وحده وبعد:

فقد عرض عليَّ الأخ الفاضل الأستاذ محمد بن إبراهيم آل لطيف ما كتبه عن موضوع العزة وقمت بمراجعته من الألف إلى الياء وقد بذل فيه جهداً مشكوراً وجمع النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وهو جهد علمي موفق نحتاجه حاجة ماسة في هذا الزمان الخطير لاسيما بعد الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام لتحطيم قوته وعزته من نفوس الناشئة من أبناء المسلمين وإحلال الهزيمة النفسية في الجيل المسلم.

وا لله سبحانه بيَّن في كتابه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والعزة لا تتحقق إلا بالإيمان فما أحوجنا إلى ما يقوي إيماننا ويزيدنا علماً وتقوى.

وهذا الجهد العلمي الموفق ما جاء من فراغ، إنما كتبه غيور على أمته يتمنى أن تعود إلى مجدها وعزها ومكانتها بين الأمم كما كانت، وهو يدعو كل مسلم أن يعتز بدينه ويرفع رأسه ويحمل القيم السامية التي أمرنا بها ربنا سبحانه ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٩].

لهذا كله أدعو كل مسلم أن يتمسك بدينه ويحافظ على مبادئه ويفتخر بهذا الدين العظيم ويعتز به ويقوم بواجبه نحو أمته هماً وتخطيطاً وعملاً وأخلاقاً ودعوة.

وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى من يزرع فيها الثقة والعزة والكرامة.

وأدعو كل مسلم أن يقرأ هذا الكتاب القيم المفيد وليعلم أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وليترك التبعية والتقليد الأعمى.

وفي الختام أشكر المؤلف وأدعو له بالعون والتوفيق والسداد.

كتبه

د. مانع بن محمد بن علي المانع

عضو الدعوة سابقاً والأستاذ المساعد بكلية الشريعة بالرياض حالياً

دعاء

اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والأنس والجن يموتون.

اللهم كما شرفت جبهتي بالسجود لك فلا تذلها بالانحناء لغيرك، وكما أسعدت قلبي بحبك فلا تشقه بحب سواك، وكما أكرمت يديَّ بسؤالك فلا تهنهما بسؤال غيرك، وأعزني بالاستغناء عن الناس.

اللهم أعز دينك وعبادك الصالحين، وأرفع شأنهم، وأعلِ ذكرهم، وأعد مجدهم، وسلّط على عدوهم الذل والهوان.

يا ربِّ إنْ عَظُمت ذنوبي كثرةً   فلقَدْ علمْتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إن كانَ لا يرجوك إلا محسنٌ   فمَنِ الّذِي يدعو ويرجو المجرمُ
مالي إِليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجاءُ   وجميلُ عفوكَ ثُمَّ إنِّي مُسلمُ

المحتوى

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد:

فإن الإسلام دين العزة والكرامة والرفعة والسمو، دين الجد والاجتهاد والتضحية والجهاد، دين لا يرضى الذلة والهوان، ولا يحث على الزوايا والأركان. فمن اعتنقه ديناً ورضي بالله رباً وبمحمد نبياً ورسولاً فقد أصبح عزيزاً؛ لأنه دخل في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨]. وهو من المؤمنين. وأصبح ضمن قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٩].

فالمسلم في علوٍّ في الدنيا ورفعة شأن، وعلوٍّ في الآخرة ورفيع قدر.

والذلة والهوان على من رفض الإسلام ولم يرضَ به ديناً، فالمحادّون لله ولرسوله ولدينه قد تسربلوا بالذلة، وتقمصوا

الهوان، وإن زمجرت بهم المراكب والطائرات، وقد حلّ عليهم الصغار وإن عملوا ما عملوا لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٠].

وقد قال صلى الله عليه وسلم «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري...»[١].

فالعزة من أبرز خلال الإسلام التي نادى بها وتعهد نماءها بما شرع من عقيدة وسنَّ من تعاليم.

فالإسلام كره للمسلمين كل ما يقدح في كمال عزتهم وشموخهم، ونفرهم من الذلّة وكره أسبابها، فنهى صلى الله عليه وسلم عن السؤال فقال لصحابته «لأن يأخذ أحدكم أحبلاً... خيراً من أن يسأل الناس أعطي أو منع»[٢] وقال صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته «لا تسألوا الناس شيئاً» فكان أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه[٣] لماذا؟

لأن السؤال يخرم العزة ويثلم المروءة.

---

(١) رواه أحمد

(٢) البخاري ٣/٦٩ و مسلم ١٠٤٢

(٣) مسلم ١٠٤٣

فالعزة مطلب للفرد وهدف للجماعة فالأمة المسلمة عندما تستقل في شؤونها لا ترضخ لأمة أخرى، ولا تقع تحت حسادها ومبغضيها، ولا يستطيع أيّ كائن أن يهضم حقها ويملي عليها أوامرها فترتفع عن مواضع المهانة وتترفع عن مزالق الذلة والهوان، فتبقى موفورة الكرامة عالية الشأن مهابة الجانب شامخة العرين، والإسلام العظيم عندما حث المسلمين على العزة ليكونوا أعزاء هداهم إلى أسبابها، وبين لهم في القرآن العزة البغيضة، وحذرهم منها فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٦] فهذه عزة الحمية والباطل وهي ممقوتة لأنها عزة الكبر والخطيئة.

وحذرهم من العزة بالعشيرة والرهط فقال ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود: ١١/٩١-٩٢].

فهذا نبي الله شعيب ينكر على قومه هذه العزة الباطلة. وحذر القرآن من طلب العزة من الكفار والمنافقين فقال تعالى ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ٤/١٣٨-١٣٩].

سؤال استنكاري مخزٍ وفاضح لمن يطلب العزة من الكفار، وتقريع وتوبيخ من يطلب العزة من غير الله.

وحذر القرآن الكريم من الاعتزاز بالمال والجاه والسلطان فذكر تعالى الحوار بين الرجلين فقال ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٤].

فعزة هذا الرجل باطلة ممقوتة بغيضة، لأنه اعتز بزائل.

ونبّه القرآن لنوع باطل من العزة، وهو العزة بالأصنام والطواغيت فقال مخبراً عن بعض القوم ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ١٩/٨١] وحذر من الاعتزاز بالأشخاص مهما كانوا فهؤلاء سحرة فرعون قالوا ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٤٤].

كل هذه الأنواع من العزة ذكرت في القرآن للابتعاد عنها والتنبيه والتحذير منها.

إذن ما العزة المطلوبة؟

إنها الاعتزاز والفخر بالله، والإعتزاز بمحمد نبياً، وبدينه شرعة ومنهاجاً، فالاعتزاز بالله يتطلب طاعته سبحانه، وتوحيده والرضاء بما قسمه وقضاه، والشكر لله على ما وهبه وأعطاه، والاعتزاز بالله ينتج في النفس الالتجاء إليه في الملمات ووقت المحن والشدائد ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٩].

والاعتزاز بالله يعني تقديم أمره على كل أمر، ومنهجه على كل منهج، وأن يجدك الله في المكان الذي ارتضاه، ولا يراك في المكان الذي نهاك عنه.

والمعتز بالله خاشع له، خائف راجٍ، مراقب له، محاسب لنفسه، متّقٍ في الظاهر والباطن والسر والعلن.

والمعتز بالله مقدم محبة ربه على محبة نفسه، فلا يتأثر برغبات النفس ولا تهزه شهوات الدنيا.

والاعتزاز بمحمد نبياً يتطلب التصديق به والاتباع له ومحبته. والاعتزاز بالدين يعني التمسك والفخر به، ونشره، وبذل الغالي والنفيس في سبيله.

فعندما يعزّ المؤمن ويفخر بهذه العزة، عندها لا تحركه الشهوات، ولا تعصف به الشبهات، ولا تضعف نفسه عند النزوات، فيعزّ ويستعلي، ويرفعه الله في الدنيا والآخرة ويعلي شأنه.

فهذا نبي الله يوسف، عليه السلام، عندما صمد أمام النزوة، ووقف في وجه الرغبة ودعا الله الإعانة، كان مثالاً للعزة.

والنفس المؤمنة عندما تقاوم وتصمد في الدنيا أمام ما يدنسها

يكون جزاؤها عند الله عظيماً، فهذا صنف من الناس يستظل في ظل العرش يوم القيامة، لماذا؟ لأنه عزَّ في الدنيا فكان جزاؤه العزّة في الآخرة «ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» [(١)]

فهذا الصنف ضحى بالشهوة الفانية، والجمال الآخاذ، والمنصب العالي، وجعل أمامه الخوف من الله فقط، فكان له الأمن يوم القيامة، فالناس في حر وضيق، وشوي للجلود وعرق، وهمّ وغمّ، وهو في ظلٍّ ظليل، وأمن وفير، وراحة واطمئنان، يا له من جزاء يساوي الدنيا كلها.....!

والله سبحانه وتعالى أمرنا بطلب العزة وهدانا إلى سبلها ومن سبلها، الطاعة والتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

والعزة في طلب العلم والعمل به ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ٥٨/١١].

والعزة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعزة في العفو والصفح، والعزة في العدل.

ومن سبل العزة إنزال الحاجات بالله الواحد القهار؛ لأنه هو

---

(١) البخاري. كتاب الآذان

النافع الضار، وهذا يجعل المسلم منتصب القامة، رافع الهامة، لا تدنيه حاجة ولا تطويه وتذله شدة لأنه موقن بقوله تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠/١٠٧].

والناس يذهبون عزتهم بسبب الخوف على الأرزاق والآجال، وهذان الأمران قد قطع الله سلطان البشر عنهما، فليس لأحد من الناس إليهما من سبيل.

قال تعالى ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٢-٢٣].

وهذا القسم من الله بتولي الرزق ليحمل الإنسان على الإجمال في الطلب، وترك الإلحاح الخارم للعزة، والتملّق المعيب للأخلاق.

وأما الآجال فهي بيد الله قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٤].

ولا ينزع الحياة إلا واهبها ولا يجبر المكسور من العظام إلا خالقها.

قال الشاعر:

لا يجبرُ النَّاسُ عظماً أنتَ كاسِرُهُ ولا يهيضونَ عظماً أنتَ جابرُهُ

فذهاب عزة الفرد والجماعة، وتحمل العار والذلة، خوفاً من الموت، وحرصاً على البقاء على أية صورة، وبأي شكل ذلك الحمق والجبن عينه.

فالقضاء والقدر خيره وشره يصيب البشر جميعاً، فالعزيز يعزّ به وله أجره، والذليل يصيبه القَدَرُ وعليه وزره، فكن عزيزاً مادام القضاء والقدر يصيب الناس جميعاً عزيزهم وذليلهم، وأرضَ بما قدره الله، واحمده عليه، واصبر على المكروه.

سبيلُكَ في الدُّنْيا سبيلُ مسافِرٍ ولا بدَّ من زادٍ لكُلِّ مسافِرِ

ولا بدَّ للإنسانِ من حَمْلِ عُدَّةٍ ولا سيَّما إنْ خافَ صَولَةَ قاهِرِ

وهذا البحث الذي أنا بصدده لا يعدو أن يكون قراءة أولية لموضوع العزة، وما يتعلق بها، ولم أشبعه تمحيصاً، وقد تركت جوانب فيه، وحذفت أخرى لأسباب خارجة عن الإرادة.

وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة فصول هي:

الفصل الأول: معنى العزة وما يراد بها، والعزة ميراث للمؤمن فقط والعزة التي ذكرها الله في كتابه ممقوتةً غير ممدوحة ونفّر منها.

الفصل الثاني: أمثلة للعزة التي مدحها القرآن وخلّدها،

وبعض مقتطفات من رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العالم، وتظهر فيها العزة. ومواقف مختصرة عن عزَّة السلف الصالح رضي الله عنهم.

الفصل الثالث: يدور حول أسباب العزة وبعض مظاهرها في المجتمع وآثارها على النفس المؤمنة.

الفصل الرابع: يدور حول أسباب فقد العزة من الفرد والجماعة.

هذا واللَّهَ أسأل أن يغفر الذنب، ويستر العيب، ويقبل العمل ويباركه، ويجعل النية فيه له وحده سبحانه، وأن يجعله من العمل الصالح الذي ينتفع به بعد الممات، ويكون في ميزان الحسنات يوم القيامة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى رحمة ربه ورضوانه

محمد بن إبراهيم على الله آل لطيف

الرياض ٢١/ ١١/ ١٤٢٤هـ

ص.ب/ ٧٠٦٣٠ - الرمز / ١١٥٧٧

جوال / ٠٥٠٦٢١٦٢٠٥



الفصل الأول

١- معنى العزة

٢- ما يراد بالعزة

٣- العزة ميراث المؤمن

٤- في ظلال العزة

٥- العزة المبغوضة في القرآن

الفصل الأول

المعنى العام للعزة

العزّة لغة: الرّفعة والامتناع، والعزّة لله.

وعزّ يَعِزُّ عِزّاً وعَزَازَةً، ورجل عزيز من قوم أعزة وأعزّاء وعزار وعزّ الرجلُ يعزّ عزّاً وعِزّة إذا قويَ بعد ذِلَّةٍ[1].

إذن: العزة: كلمة فيها معنى القوة والشدة والغلبة، والعزيز: هو الغالب لسواه، ولذلك عُرّفت العزة: بأنها صفة مانعة للإنسان من أن يغلبه غيره[2].

قال: ابن القيم رحمه الله، العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعاً، ويقال: عز - يعز بفتح العين - إذا اشتد وقوي ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعز - يعز بكسر العين، إذا امتنع مما يرومه، وبضم العين إذا غلب وقهر، فأقوى الحركات الضم لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، ولا ريب أن قهر

---

(١) اللسان (عزّ)

(٢) موسوعة أخلاق القرآن ١/١٦

المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر فإن قهره عن إرادته وجعله مريداً كان أقوى أنواع القهر(١).

والعز ضد الذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون له ذماً بخلاف الكبر، قال رجل للحسن البصري إنك متكبر، فقال: لست متكبراً، ولكني عزيز (٢).

ويقال: عز فلان إذا برئ من الذل والهوان، ويقال عزني فلان، أي غلبني ومنه قوله تعالى ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٣٨/٢٣]، ويقال عز على نفسي غيابك، أي صعب (٣).

ومنه قول القرآن ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

ويقال: عز الوفاء بين الناس، أي قل وجوده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١/٤١] أي يصعب مناله ولا يوجد مثاله، أي الغالب القوي، وهو المعز سبحانه وتعالى «العزيز» أي الغالب القوي، وهو المعز سبحانه يهب العزة لمن يشاء من عباده(٤).

(١) طريق الهجرتين و باب السعادتين / ١٩٦
(٢) طريق الهجرتين و باب السعادتين / ١٩٦
(٣) موسوعة أخلاق القرآن ١/١٦
(٤) موسوعة أخلاق القرآن ١/١٦

ما يراد بالعزة:

قال ابن القيم[١]: يراد بالعزة ثلاثة معانٍ:

١- عزة القوة.

٢- عزة الامتناع.

٣- عزة القهر.

والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاثة.

وقد تكرر لفظ صفة العزيز في القرآن الكريم ما يقرب من تسعين مرة فهو سبحانه وتعالى يملأ أسماعنا وقلوبنا ومشاعرنا بعزته وقوته وقهره، لنطلبها منه، ونستشعرها في أنفسنا، فلا نرضى بالذلة والهوان.

وفي الأثر: إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل.

وقال بعضهم: من أراد عزاً بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

وفي الدعاء «اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك»[٢].

---

(١) مدارج السالكين ٣/٢٦٨

(٢) طريق الهجرتين و باب السعادتين ١/١٩٧

وأهل النفاق ما حملهم على النفاق إلّا طلب العز والجاه من الطائفتين، المؤمنين والكافرين، فيرضون المؤمنين ليعزوهم ويرضون الكفار ليعزوهم أيضاً، ومن هنا دخل عليهم البلاء، لأنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، فقوبلوا بأعظم الذل، وجعلوا في أسفل سافلين[١].

وتظهر عزة الله سبحانه وتعالى في انتقامه من الأعداء، ونصره للأولياء، وإعزاز من يليق به العز، وإذلال من يليق به الذل.

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٩].

«فأخبر أن له الحجة البالغة، فأقامها وصرف الآيات، وضرب الأمثال، ونوّع الأدلة، ولو كان الخلق كلهم على طريقة واحدة من الهداية، لما ظهرت عزته سبحانه وتعالى في انتقامه من أعدائه، ونصر أوليائه عليهم، وهذه الآيات وهذه العزة والحكمة لا سبيل إلى تعطيلها ولا توجد من دون لوازمها»[٢].

فالعزة بمعانيها الثلاثة لا تطلب إلا من الله، ولا ترجى إلا بطاعة الله، ومن طلبها بغير ذلك أذله الله وأخزاه، مصداق

---

(١) المرجع السابق / ٦٦٥

(٢) المرجع السابق / ٢١٦

لقول عمر رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله»[(١)].

وقد طلبها الكفار والمشركون وبعض جهال هذا العصر في غير مظانها وعند من لا يملكها، قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٤/١٣٩].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

قال ابن عتيق: «والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله تعالى، الالتجاء إلى عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» [(٢)] .

العزة ميراث المؤمن

العزة ميراث للمؤمن فقط، فليحرص كل مؤمن على ميراثه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٢

(٢) سبيل النجاة و الفكاك ٢٣.

فهذه الآية ردّ على المنافقين الذين ادعوا العزة ووصموا المؤمنين بالذلة، فرد عليهم الله، أن العزة لله سبحانه، وأن قهره وغلبته على من دونه، ولرسوله ودينه فهو ظاهر على جميع الأديان، ولمن أعزه الله من المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم، وهم المخصصون بذلك.

أما غيرهم فلهم المذلة والهوان ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١] .

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٢].

وقال تعالى عن الكفار والمشركين والمنافقين المحادين لله ورسوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٠]. وليست هذه الذلة مقصورة على الدنيا، بل في الآخرة هم أذلاء، قال تعالى ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٣] فالعزة سمة للمؤمنين عليهم أن يتحلّوا بها، ويحرصوا عليها، ويطلبوها بلوازمها، والقرآن الكريم حثنا وحرضنا على إيثار العزة وإباء الضيم وعمد إلى ضرب الأمثلة من الأمم السابقة التي استشعرت العزة

وتمردت على الذلة والهوان فكان جزاؤها كريماً وثوابها عظيماً ونصرها مؤزراً، لأنها كافحت من أجل عقيدتها، وضحت في سبيل مبادئها، فنصرها الله وأعزها، فقال مخبراً سبحانه وتعالى عن أحد الأنبياء ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: ٣/١٤٦].

وكانت النتيجة العظيمة ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٣/١٤٨]

والعزة خلق كريم للمؤمن، ووصفٌ حميدٌ عزَّ في هذا الزمان والعزة ليست كبراً ولا تفاخراً وليست بغياً على الآخرين ولا عدواناً ولا هضماً لحق، أو غمطاً لبشر، ولكنها حفظاً للكرامة وارتفاعاً عن السفاسف والتفاهات في جميع الأمور، ولا يفهم أن العزة تتعارض مع الرحمة، بل خير الأعزاء وأفضلهم صلى الله عليه وسلم. عندما عرضوا عليه الجاه والمال لترك دعوته في أول الأمر قال صلى الله عليه وسلم «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي، على أن أدع هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»[1] فكان خير الأعزاء، وهو خير الرحماء بالمؤمنين رؤوف رحيم.

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٦

والعزة ميراث للمؤمن؛ لأنه اكتسبها من عزة ربه، فالعزة رفيعة القدر، لأنها قادمة من العلو، فكانت علواً ورفعة، ولا تكون هذه الرفعة إلا للمؤمن، وقد نادى بها الإسلام وحثنا عليها، وطلب إلينا غرسها في نفوسنا ونفوس أبنائنا ومجتمعنا، وتعهد برعايتها بما شرع من عقائد وآداب وأوامر ونواه، وبما تركه لنا السلف الصالح من مُثل ومواقف، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أُحبُّ من الرّجلِ إذا سيمَ خُطَّةَ خَسْفٍ أن يقولَ: بملءِ فيه: لا»(١).

وعندما يوقن المؤمن أنه فرد في الأمة العظيمة التي تشهد على الناس، مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]]، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠]. وهو من هذه الأمة الخيرة، فرداً فيها. وعندما يستشعر أنه عزيز، لأنه من عباد الله المؤمنين وعزته من عزة الله مصداقاً لقوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨].

وعندما يوقن المؤمن أن الله وليه ومعينه وناصره، مصدقاً لقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]. وقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/٤٧].

(١) خلق المسلم ١٩٧

وعندما يتذكر أنه في حماية الله الأقوى من كل قوي، يذود عنه، ويحرسه من خيانة الخائنين، ويرد عنه سهام الكائدين والمعتدين، لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٨].

عندما يستشعر المؤمن هذه المعاني السامية، والقواعد الرفيعة، تسري في نفسه العزة والكرامة، وتكبر نفسه، وتعلو همته، ولا يذله قوي ولا يطاطئ رقبته لجبّار، فيعيش عزيزَ النفس، عالي الرأس، أبياً للضيم، عصيّاً على الذل والهوان، شاعراً بمكانته في الحياة، منطلقاً لتحقيق الغرض الذي أوجده الله من أجله في هذه الحياة، لعبادته وعمارة أرضه بطاعته، وإقامة أوامره وسلطانه، وحدوده وشرعه، غايته رضوان الله، وهدفه الخلود في جنات عدن مع الصديقين والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقاً.

في ظلال العزة

قال تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠] من تدبر هذه الآية علم وأيقن واستقرت في قلبه العزة، لأن الله هو العزيز وهو المعز، يُعزّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء، فله العزة كاملة، ومنه وبه يعز كل عزيز، وهذه الحقيقة إذا استقرت في القلب تبدلت المعايير، وتغيرت المفاهيم، وترسخت قيمة

العزة في النفوس، فأصبحت عزيزة كريمة ثابتة لا يهمها شيء ثابتة غير متزعزعة، نفوس لا تحركها الشهوات، ولا تضعف أمام المناصب والترقيات، فلا تنحني إلا لمعطي العزة وحده سبحانه. النفوس التي تستقر فيها هذه الحقيقة لا تعصف بها عواصف الشبهات، ولا مجاملات الجاه، ولا تهزها رياح الرغبات، ولا تضعفها قوة الأعداء مهما بلغت.

العزة حين يستقر معناها في القلب، يستعلي ذلك القلب على كل أسباب الذلة والهوان التي تضعفه عن قول الحق والجهر به، فلا يخاف إلا الله؛ لأنه هو من يهب الحياة وهو من يسلبها، ولا ينحني ذلك القلب لغير الله، فيستعلي على شهواته المذلة، ورغباته القاهرة، وخوفه الجامح، وطمعه في منافيات العزة، فلا يذل ولا يخضع إلا لله سبحانه وتعالى.

ولا يعني هذا أن العزة شموخ بالباطل، أو عناد على الحق، أو طغيانٌ على المبادئ، أو تجبر على القيم وإصرار على غير الحق، أو اندفاع من دون ضوابط، وليست العزة قوة من دون تحكم، وبطش بلا حق، وحكم على الآخرين من دون حجة، ولا اتهام للنيات.........!

إنما العزة! رفعة و استعلاء على شهوات النفس ورغباتها وتقييد لنزواتها أولاً، ثم استعلاء على الذل بكل صوره وأشكاله

وترفع عن الخضوع للبشر، وهي خشوع وخضوع لله وحده، وخوف وخشية من الله وحده، وتقوى ومراقبة لله وحده في جميع الأحوال والأزمان والأمكنة، في الظاهر والباطن، في السر والعلن، وهي قناعة في القلب بالمقسوم، ورضاء بالقدر، وإيمان يخالط شغاف القلب، فيجعلها لله وبالله، له تخضع ومنه تخاف، ولرضاه تطلب، ومن سخطه تهرب. حين يستقر معنى هذه العزة في القلوب، تصبح عزيزة منيعة، فترتفع النفوس وتكبر، فتقف أمام الدنيا عزيزة ثابتة على الحق، وعندها تتغلب تلك القلوب على ما سواها، ويرتفع الحق معها ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

لقد حفل القرآن الكريم بصور شتى للعزة، وبأمثال خلدها وذكرها، سأفرد لها عنواناً في هذا الكتيب، ولكنني أتطرق لقوم عزو في سبيل عقيدتهم، وضحّوا بأنفسهم من أجل ذلك، إنهم أصحاب الأخدود الذين لم تستذلهم الدنيا وحبها، ورغبة البقاء فيها، لقد مات أولئك القوم شر ميتة في نظر موازين الدنيا، فشاركوا الناس الموت لأن الناس جميعاً يموتون، وتختلف الأسباب والمسببات، لكن أكُلُّهم يذكرون بعد موتهم، ويخلد ذكرهم إلى الأبد فينتصرون؟.... لا طبعاً.

لكن أولئك القوم، لأنهم كانوا معتزين بدينهم وعقيدتهم وضحوا بأنفسهم من أجلها ولم يتراجعوا، كان جزاؤهم تخليد

ذكرهم في القرآن، فكرّسوا أيمّا تكريم، ومجدوا في الدنيا وعند خالقهم في الملأ الأعلى.

إن العزة الحقيقية التي نريدها هي الاعتزاز بالله أولاً، والاعتزاز بالدين ثانياً، والاعتزاز بالنفس وصيانتها عن كل مذلة لغير الله، وعما يدنسها من الشهوات والشبهات. المؤمن العزيز قوي في كل حالاته، مستعل في كل أموره، لأنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٩].

هذه الآية الكريمة نزلت على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في أُحدٍ، والمسلمون منكسرون في الحرب مثخنون بالجراح، وعدوهم ظاهر ومستحوذ، ولكن الله يقول لهم: وأنتم الأعلون، فهذا الاستعلاء حتى بعد الهزيمة، لأن استعلاءهم مأخوذ من إيمانهم بالله، فهم مستعلون، ولو كانوا محتاجين. فالمؤمن مستعل في وجه الشهوات، ولو أحس بأثرها في أعصابه، لأنه مرتبط بالله فلا يذل نفسه لشهوة ساعة تدنس طاعته وكرامته في وحل المعصية، العزة الحقيقية تجعل صاحبها يقف في وجه القيم الزائفة والشعارات الكاذبة، لأنه يملك القيم الصادقة المستمدة من الله ومنهجه، فهو متواضع، لا يحتقر أحداً من الناس ولا يتكبر على أحد، يحب الخير للناس ويرحمهم ويدعوهم للخير، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر

برفق، يتألم لآلامهم ويشارك في نجدتهم ومعونتهم، العزة توازن في السلوك والفكر والشعور، العزة كبح للنزوات الطارئة على النفس، ورجوح العقل، العزة توازن بين الأخذ من الدنيا، لا إغراق في المباحات، وتغليب لها في الحياة، حتى تجد روحه فسحة للانطلاق إلى عالم الطاعات والملكوت الأعلى، لأن الإغراق في المادة يكبل الروح ويجعلها سفلية وليست علوية.

صاحب العزة حكيم في أموره، يغّلب التثبت والتبين في النظريات والأنباء، يزنها بميزان الشرع أولاً والفكر ثانياً، يسير على منهج الله ودستوره وأوامره، وينتهي عن نواهيه.

صاحب العزة واضحة له الحقائق الكبرى وأهدافها، لماذا خُلقت؟ مانهاية الحياة؟ ماذا بعد الموت؟ لماذا أعمل في الدنيا؟ ما نوع العمل الصالح؟ ما ضوابطه؟ وأسئلة كثيرة!

صاحب العزة لديه الإجابة عن كل هذه الأسئلة، استقاها من عقيدته ودينه وآمن بها، وقرأ كتاب الله المقروء، وشاهد معجزة الله المنظورة، وهي الكون وما فيه، وآمن بما جاء على لسان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. ولذلك صاحب العزة لا تهزّه رياح الحيرة، ولا تقربه عواصف الشك والريبة، ثابت مؤمن بالحقائق الكبرى ولديه الجواب.

العزة المبغوضة في القرآن

جاءت العزة في القرآن في مواضع كثيرة تدل على معان بغيضة، تحذر المؤمنين منها

١- الحمية[١]

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٦]. وقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: ٣٨/٢].

قال ابن كثير: «في الآية إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتقِ وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم»[٢].

وقال الشوكاني: «حملته العزة على الإثم، قيل أخذته العزة بما يؤثمه»، وقال أيضاً: «أخذته العزة والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي في قلبه وهو النفاق»[٣].

«وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير ولكن بالإثم فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة، ورفع رأسه في وجه الحق

---

(١) الحمية: شدة الغضب، و المروءة، و النخوة، و الإباء.

(٢) ابن كثير ١/٣٤٦

(٣) فتح القدير ١/٢٠٨

وأمام الله بلا حياء منه..»[١] ومن هذا يفهم أن عزة الحمية الكاذبة تجر على صاحبها الويل والثبور وترده عن الحق وتزرع في نفسه الكبر، بل والاستعزاز بالإثم والإجرام والذنب ومصيره في الدنيا الضلال والبعد عن الهدى، وفي الآخرة النار وبئس المهاد. لأنه كما قال ابن سعدي: «جمع بين العمل بالمعاصي والتكبر على النصح»[٢].

«وفي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم، واللّدد في الخصومة، والقسوة والفجور تأتيه اللَّطمة اللائقة به ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾.

ويا للسخرية! ويا لبؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء، ذلك نموذج من الناس»[٣].

٢- الاعتزاز بالعشيرة والنسب

قال تعالى ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ، قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١١/٩١-٩٢].

إن الاعتزاز بالقبيلة والفخر بالنسب لا يهب عزة ولا رفعة ولا مكانة أبداً، لأنه نوع من الاعتزاز بزائل، وصرف للحب

(١) ظلال القرآن ١/١٩٩

(٢) تفسير بن سعدي ١ / ١٧٢

(٣) ظلال القرآن / ١٩٩

والولاء لغير الله واهب العزة ومانحها يعز من يشاء ويذل من يشاء، فمن يطلب العزة بعشيرته ونسبه فقد خاب وخسر.

فهذا نبي الله شعيب، عليه السلام، أنكر على قومه مقالتهم وشنع عليهم استهانتهم بالله، عز وجل، وتوقيرهم لعشيرته ورهطه.

قال الشوكاني: «رهط الرجل عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم، وجعلوا رهطه مانعاً من إنزال الضرر به، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ حتى نكف عنك لأجل عزتك عندنا، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، فاستنكر ذلك عليهم، وتعجب منهم بصورة الاستفهام، وفي هذا قوّة المحاجّة ووضوح المجادلة، وفي هذا قال علي رضي الله عنه: «فوالله ما هابوا جلال ربهم وما هابوا إلا العشيرة»[١].

إن المؤمن الصادق لا يعتز إلا بدينه، ولا يطلب العزة والرفعة والمنعة إلا من ربه، لأنّ أفراد القبيلة ضعاف وزائلون، وعزتهم هي في حقيقتها ذلّة لهم، إن نبي الله شعيب ضرب مثلاً صريحاً في إنكار الاعتزاز بالرهط، والغيرة على جلال الخالق سبحانه وتعالى واهب العزة.

---

(١) فتح القدير ١/ ٥٢٠

«وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة، والقيم الرفيعة، والمثل العالية فإنها تقبع على الأرض، وقيمها الدنيا فلا ترى حرمة لدعوة ولا تتحرج عن البطش بداعية. إن المؤمن لا يعتز إلا بربه، ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى، فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه، إنما لربه ودينه»[١] .

وقد تبرأ المصطفى صلى الله عليه وسلم من أقرباء له ليسوا على دينه، فوضع من نفسه قدوة للمؤمنين في ذلك، ولم يفخر أو يتعصب لهم، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن آل فلان - أناسٌ من أقاربه - ليسوا لي بأولياء، إنما وليِيّ الله وصالح المؤمنين»[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنّ أولى الناس بي المتّقون من كانوا وحيث كانوا»[٣].

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٤].

(١) الظلال ٤/ ١٩٢٣

(٢) البخاري ١٠/ ٤١٩ كتاب الأدب، و مسلم ١/ ١٩٧ في الإيمان (انظر تخريج الولاء والبراء) .

(٣) مسند أحمد ٥/ ٢٣٥ و هو حديث صحيح (انظر تخريج الولاء والبراء) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام، إنما هم فحمٌ من فحم جهنّم أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعْلان التي تدفع بأنفها النتن»[1].

يا له من حديث مخيف! يا مفتخرون بعشيرتكم...

اقرؤوا هذا الحديث واعقلوه! واربطوا بين الفخر بالعشيرة والنسب وبين الجعلان والنتن، تدبروا الرابط بينهم.

وفي حديث أبي هريرة الطويل الذي أخرجه مسلم «من نفَّس عن مؤمن كُربة... ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ومعناه أن العمل الصالح هو الذي يبلغ بالعبد الدرجات العلا من الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢/٦]، فمن أبطأ به عمله أن يبلغه المنازل العالية لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات، والله قد رتب الجزاء على الأعمال، لا على الأنساب كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١/٢٣].

---

(١) أبو داود ٥/ ٣٤٠، كتاب الأدب، والترمذي ٩/ ٤٣٠ في المناقب وقال: حديث حسن. وعبيَّة الجاهلية: نخوتها.

فالعزة وولاية الله تنال بالعمل الصالح، ومن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له، سواء كان له نسب قريب من النبي محمد صلى الله عليه وسلم أم لم يكن. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النَّسَبْ
لقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ
وقد وَضَعَ الشِّرْكُ النَّسيبَ أَبَا لَهَبْ

فحرص صلى الله عليه وسلم على تربية أمته على الانتماء إلى الدين والفخر به، والبعد عن مفاخر الأنساب والأحساب، وهذا فيه تربية على أفراد التعلق بالله وحده، وصرف الحب والولاء والتعظيم والطاعة والإنابة له وحده سبحانه وتعالى، وتجريد النفس من كل محبوب سوى الله، حتى لو كانت العشيرة أو الرهط أو أقرب قريب أو أحب صديق.

إنني أشم رائحة نتنةً تفوح في المجالس هذه الأيام عن التفاخر بالأنساب والقبائل، وأرى مُذْكيْنَ ومطبّلين لهذه الجاهلية الجهلاء، فبدلاً من الرجوع إلى الله والنظر والتفكير في العودة إلى الله، وبدلاً من التفكير في حال الأمة وكيف نستنهضها من الغفلة والغفوة؟ وكيف نعمق فيها مبدأ الولاء والبراء ومبدأ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؟ وبدلاً أن نفكر في الحملات

الصليبية الجديدة على بلادنا الإسلامية، وبدلاً من التفكير في كيفية الردّ على الهجوم الإعلامي الشّرس على بلادنا ورسولنا وديننا نرى بعض الناس يطرح أموراً جاهلية لسنا في حاجة إليها، ونحن في حال القوة، فما بالك ونحن في حال ضعف! ونحن مقبلون على مرحلة خطرة، وهجوم تتري جديد بثوب جديد ودوافع جديدة، فيا الله عزتك ونصرك لدينك وعبادك الصالحين.

ولتكن وصية الفاروق رضي الله عنه دائماً في عقولنا عندما أوصى سعد بن أبي وقاص القائد على جيش العراق والقادسية قال: «يا سعدَ بن وُهَيْبٍ لا يغرنك من الله إن قيل: خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله لايمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة»[1].

٣- طلب العزة من الكفار والمنافقين

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ [النساء: ٤/١٣٨-١٣٩].

سؤال استنكاري مخز، واستفهام وتقريع وتوبيخ لتلك الفئة

(١) القادسية و معارك العراق

المنافقة التي اتخذت الكفار أولياء، وتركت ولاية المؤمنين ابتغاءً للعزة والغلبة. أهؤلاء يفهمون؟ كلا. هل يعقلون؟ كلا.

قال الشوكاني: «هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، بابتغاء العزة عند الكافرين، وجميع أنواع العزة مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله»[1].

إن من يطلب العزة من الكفار والمنافقين ويتملقهم ويخضع لهم، ويذل نفسه عندهم، قد ساء ظنه بربه، وضعف تمسكه بدينه، وفتر يقينه إذا كان عنده يقين بنصر الله لعباده المؤمنين، إن من يطلب العزة عند الكفار قد خُدع وانبهر بما يملكه الكفار من القوة العسكرية وتنوعها، والهيمنة السياسية وتسلطها، والقوة الاقتصادية ومكانتها والقوة الإعلامية وانتشارها، فوازنوا بين الحالين فنزل بهم البلاء والهوان، وما علموا حقيقة النصر، وما دروا بقوله ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٠]. ولا قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢٦]. ولا قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١].

قال ابن سعدي في الآية: «ولحظ المنافقون بعض الأسباب

(١) فتح القدير ١/ ٥٢٦

عند الكافرين وقَصُرَ نظرُهم فاتخذوهم أولياء يتعزوون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعاً، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين»[١].

«فهم لِمَ يضعون أنفسهم هذا الموضع؟ لِمَ يتخذون هذا الموقف؟ لقد تقرر أن العزة لله وحده، فهي تطلب عنده، وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين، إنها عبودية لعباد الله وكلها استخذاء وذلة وأغلال»[٢].

وخلاصة القول: إن طلب العزة من الكفار مقتها الله ووبخ طالبيها، وقال في الآية التي بعدها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠]. وبشر المؤمنين في الآية التي بعدها بقوله ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤١].

٤- الاعتزاز بالمال والسلطان والجاه

قال تعالى: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٤].

يوضح لنا ربنا في قصة هذين الرجلين، الذين يعتز أحدهما

(١) تفسير بن سعدي ١/ ٤٧٣

(٢) الظلال ٢/ ٧٨٠

بالمال والجاه والسلطان من الخدم والعبيد وغيرهم، ويعتز الآخر ويفتخر بدينه وإيمانه.

فالعزة الأولى بالمال وكثرته والجاه وسلطانه بغيضة ممقوتة، حذرنا منها ربنا سبحانه وتعالى.

قال ابن سعدي في هذه الآية: «فخر بكثرة ماله وعز أنصاره من عبيد وخدم وأقارب وهذا جهل منه، فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني»[١].

وقال الشوكاني: «لما علّمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله أجابه على افتخاره بالمال والنفر»[٢].

وما النتيجة لهذا الفخر بكثرة المال والجاه؟

إنها: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٣].

«إنه لم تكن له جماعة يلتجئ إليها وينتصر بها ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق»[٣] وهذه عاقبة الافتخار والاعتزاز

---

(١) تفسير بن سعدي ٣/ ١٧٦

(٢) فتح القدير ٣/ ٢٨٨

(٣) فتح القدير ٣/ ٢٨٨

بالمال والجاه الذين أعتز بهم لم يدفعوا عنه ما حصل لجنته، وأصبحت جنته خلال لحظات هباءً منثوراً، وعندما يذهب المال والجاه أمام العين يكون الألم أشد، والمرارة أعظم، والوقع في النفس أبلغ. إن الاعتزاز بالمال زائل باطل، والمال وبال وخسارة إن لم ينفق في الخير، أصبح هماً دائماً في الدنيا، وحساباً وعقاباً في الآخرة.

يقول صاحب الظلال: «إن قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والباقية، فنفس معتزة بالحياة ونفس معتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس، فصاحب الجنتين نموذج لمن تُبْطِرُه النعمة، فينسى القوة الكبرى، ويتعالى على صاحبه، إنه الغرور يُخيِّل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء.

أما الفقير فهو معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بالله الذي تعنو له الجباه، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال وما عند الله خير من الدنيا وما فيها».

إن المال ليست له عزة دائمة إلا إذا أدخره صاحبه ليوم القيامة، كأمثال أبي طلحة رضي الله عنه الذي أدخر ماله ليوم الحساب عندما تصدّق به في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بخ! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح...»(١) متفق عليه.

---

(١) البخاري ٤٥٥٤ و مسلم ٩٩٨ في الإنفاق

وقد حثنا ديننا على ادّخار المال للآخرة بإنفاقه في وجوه الخير، وقال صلى الله عليه وسلم «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق...»[1] وفهم ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه الذي جهز جيشاً بكامله وهو جيش العسرة، وقال فيه الرسول صلى الله عليه و سلم: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم».

وقبل هذا أبو بكر رضي الله عنه الذي أنفق ماله كله في سبيل الله، وعمر رضي الله عنه الذي تصدق بنصف ماله في سبيل الله، ومن الذين فهموا هذا الفهم عبد الرحمن بن عوف وأغنياء الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، فنعم الرجال ونعم المال الذي ادخروا عزّته ليوم الميعاد، ولم يفاخروا به في الدنيا، وكانوا قمة في التواضع، وقمة في العطاء والجود.

فاسمعوا يا من جرى المال في أيديكم وبخلتم بالإنفاق في وجوه الخير، واستكثرتم من الإنفاق في طرق الشيطان وأهوائكم وشهواتكم، وفي الدعايات لأنفسكم وشخصياتكم.

ولتكن قدوتكم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فعن أنس رضي الله عنه قال:

---

(١) البخاري ٧٣ كتاب العلم و مسلم ٨١٦ كتاب صلاة المسافرين.

«ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين......» [١] أو على أقل تقدير أخرجوا زكاة أموالكم للمستحقين فعلاً، ولا تهدروا ماء وجوههم عند العطاء، واعلموا أنه ما زيادة عدد الفقراء إلا دليل على ظلم الأغنياء الذين أخذوا حقهم، لأن الله وزع الأرزاق بين العباد.

وليحذر الأغنياء من فتنة المال أن يكبهم في جهنم، عن كعب ابن عياض رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[٢]. وليخافوا من الحرص والعزة بالمال والشرف، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[٣].

وليعلم الأغنياء أن التخفف من الدنيا هو النجاة، لأن الحساب دقيق، والناقد بصير، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيتأخر الأغنياء عن الدخول إلى الجنة، للإجابة عن المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ فعن أبي هريرة

---

(١) مسلم ٢٣١٢ كتاب الفضائل

(٢) رواه الترمذي و قال حسن صحيح في الزهد / ٢٣٣٦

(٣) رواه الترمذي و قال حسن صحيح في الزهد / ٢٣٧٦

رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «يدخل الفقراء قبل الأغنياء بخمسمئة عام»[١]

٥- طلب العزة من الأصنام والطواغيت

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨١] يخبرنا ربنا سبحانه وتعالى عن نوع من العزة ممقوت وبغيض، إنه التعزز بالأصنام والطواغيت أيّاً كانت حية أم ميتة، ساكنة أم متحركة، وأنها لا تجلب عزة، وإنما ذل وهوان وخزي وعار وندامة يوم القيامة. قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر عن المشركين أنهم اتخذوا من دونه آلهة يتعزّزون بها ويستنصرونها)[٢].

«اتخذوا الآلهة من دون الله لأجل يتعزّزون بذلك، وليكونوا لهم أعواناً، وليس الأمر كما ظنوا ووهموا).

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨٢]]. أي تكون هذه الآلهة التي ظنوها عزاً لهم ضداً عليهم، أي ضد للعز وضد العز الذل)[٣].

---

(١) رواه الترمذي و قال حسن صحيح في الزهد / ٢٣٥٣

(٢) ابن كثير ٣/ ١٧٩٠

(٣) فتح القدير ٣/ ٣٥٠

فهذه الأصنام والطواغيت التي تقربوا إليها وأحبُّوها لتكون لهم عزاً، جلبت لهم الذل في الدنيا والخصومة والتكذيب والحسرة والندامة يوم القيامة.

نقل صاحب فتح المجيد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢/٢٢] عن قتادة ومجاهد:

«أنهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله»[١].

«فهؤلاء الذين يكفرون بآيات الله يتخذون من دونه آلهة يطلبون عندها العزة والغلبة والنصرة، كلا، سينكرونهم ويبرؤون منهم ويشهدون عليهم»[٢].

٦- طلب العزة من الأشخاص أياً كانوا

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٤٤].

يخبرنا الله تعالى عن المناظرة بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون، فعندما جاؤوا بسحر عظيم، واشترطوا على فرعون الأجر، ووعدهم أنهم سيكونون من المقربين، فعندما ألقوا حبالهم وعصيهم، طلبوا النصر والغلبة والقهر على موسى بماذا؟

---

(١) فتح المجيد / ٤٦٢

(٢) الظلال ٤/ ٢٣٢٠

بعزة فرعون، لأنهم لا يرون أقوى منه فهم يتخيلون قوة فرعون ويوقنون بعزته، لأنه خدعهم، وقال: أنا ربكم الأعلى، وهذه الأنهار تجري من تحتي، فهم يرون النصر والغلبة في عزة فرعون، ولكن هيهات هيهات!. العزة لله والغلبة للواحد الأحد. وما هي إلا لحظات حتى انقلب السحر على الساحر، ودخل الإيمان قلوب السحرة، وعرفوا الحق المبين فضحوا بالدنيا وما فيها في سبيل مرضاة الله سبحانه وتعالى. فيا من يطلب العزة من الكبراء! اعلموا أن الله أكبر من كل كبير، ويا من يطلب العزة في أبواب الملوك والعظماء الله ملك الملوك، والله أعظم من كل عظيم.

في الأثر: إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ولا يجدونها إلا في طاعة الله عز وجل(١).

وقال بعضهم: من أراد عزاً بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة وغنىً بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة(٢).

فاسمعوا يا من يتزاحمون على الأبواب من أجل فتات زائل:

الملفت للنظر والغريب أن سحرة فرعون، طلبوا النصر

(١) طريق الهجرتين و باب السعادتين

(٢) طريق الهجرتين و باب السعادتين

والغلبة بعزة فرعون، في حين أن الشيطان الرجيم، أقسم بإغواء الخلق والناس أجمعين، بعزة الله، فقال ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٢].

فكان السحرة قبل إيمانهم أشد غواية من الشيطان، فسبحان الله الذي بين إصبعيه قلوب العباد، يقلبها كيف شاء، فكيف انقلب السحرة قوة إيمانية لا تهزها الجبال، ولا تخيفها تقطيع الأيدي والأرجل والتنكيل وقالوا برضاء نفس وإيمان عظيم ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٥٠] .

٧- الاعتزاز بالعدد والعدة

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٥].

هذه الآية الكريمة ترسم لنا مصير الاعتزاز بغير الله، والاعتماد على القوة المادية المحسوسة، وتقرر أن نتيجة ذلك الإخفاق والهزيمة وتولية الأدبار والشعور بالضيق في النفس والضيق في الأرض، ولكن رحمة الله قريبة من المحسنين.

«يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله وإحسانه عليهم في نصره إياهم وأن ذلك من عند الله وبتأييده وتقديره لا بعددهم وعدتهم

وأخبرهم أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل ثم أنزل الله نصره وتأييده وعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده وإن قل الجمع»[١].

وقد كان الجيش في حنين اثني عشر ألفاً والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم وقال بعضهم: «لن نغلب اليوم من قلة».

يقول المفكر المسلم محمد قطب «لقد كان الدرس هنا قاسياً عنيفاً يوم اعتز المسلمون بكثرتهم، وأعجبتهم قوتهم، كان الدرس هو ردّهم إلى الله، ليعتزوا به وحده، ويستمدوا منه القوة وحده، ولا ينظروا لأي قوة أرضية - معهم أو عليهم على أنها العامل الحاسم في المعركة، أو أنها هي التي تقرر شيئاً على الإطلاق من مصائر الأمور! لقد كانت القوة الأرضية في مكة ضدهم. فرباهم هناك على أنها لا تعني شيئاً في حقيقة الأمر، وهم مدعوون أن يلجؤوا إلى الله وحده ويعتزوا به وبقوته..»[٢]

فاسمعوا! يا من يهوّل في قوة الكفار ويخافهم ويشعر بالهزيمة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٨١

(٢) منهج التربية الإسلامية ١/ ٢١٢ .

قبل المعركة: النصر من الله لأن هنالك قوى كثيرة متعددة متنوعة جاهزة للدفاع والنصرة، هذه القوى عند الله سبحانه وتعالى تنزل حين تتوافر شروط النزول والنصرة في لحظات ولا تحتاج إلى تعبئة ولا إلى ناقلات، أبداً! لحظات فإذا هي في ساحة الجهاد، هذه القوى في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣١].

وفي حنين نزلت هذه الجنود كما نزلت من قبل في بدر وفي أحد وغيرها، وعندما نزلت الجنود في حنين انقلبت الهزيمة نصراً، والضيق سعة في الأرض، وفرحة في النفس، والإدبار إقبالاً، والقلق سكينة، قال تعالى في نزول هذه الجنود: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٩/ ٢٦].

هذه الجنود جاهزة في السماء لنصرة المؤمنين في كل زمان وفي أي مكان بشروط تحقق نزولها.

«إن معركة حنين تعرض نتائج الاعتماد على قوة غير قوته لتكشف لنا حقيقة القوى، إن الكثرة العددية ليست بشيء، بل قد تكون سبباً في الهزيمة، لأنها تخدع وتجعل أصحابها يتهاونون في توثيق صلتهم بالله انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة، لقد قامت العقيدة، وتحقق النصر بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح»[1].

(١) ظلال القرآن

الخلاصة

احذر أخي المسلم من العزة البغيضة! لا تعتز بالإثم والحمية، ولا تعتز بعشيرتك ونسبك وقبيلتك، وإياك إياك أن تطلب العزة من كافر أو مشرك أو منافق، ولا يخدعنَّك الفخر والاعتزاز بالجاه والمال والسلطان، ولا يخلد بظنك أن العزة في الأشخاص والطواغيت، ولا تفتخر ولا تعتز بالقوة المحسوسة من عتاد وعدد. بل العزة لله وحده سبحانه، ومنه نال كل عزيز عزته، فإن كان مؤمناً فهو عزيز بالله، وإن كافراً فعزته في حقيقتها ذلة ومهانة، وإن بدت غير ذلك. فأبو جهل لم تنفعه عزته واستكباره، ووقع على وجهه في النار، وهزم وذل في الدنيا، وأبو لهب لم تنفعه عزته وفخره بنسبه، وابن سلول أوقعته عزته بالمنافقين واليهود في المدينة، في فخ الذل، وأطاحت به وأوقعته في المهانة، وقارون أوقعه عزه بالمال في أسفل سافلين، فهو في الْخَسْف الأرضي يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وسوف يذل ويهان أمام الخلائق يوم القيامة، وعلى رؤوس الأشهاد وسبب ذلك عزته وفخره بماله.

وهامان أوقعته عزته بجاهه ووزارته في الندامة والهوان.

وكفار قريش أوقعتهم عزة الاستكبار والشقاق في الهزيمة النفسية قبل المعارك مع جنود العقيدة وفي الهزيمة الحقيقة يوم

التقوا جنودَ الله، فوقعوا في التقتيل والتشريد والأسر، وهم يوم القيامة في ذل خاشعين، وفي عذاب مقيم، وسبب ذلك طلبهم العزة من غير الله وبغير الإسلام.

وصحابة المصطفى صلى الله عليه وسلم والنخبة الفريدة، والجيل الممتثل للقرآن وقعوا في فخ الهزيمة والإدبار والضيق يوم ركنوا إلى كثرتهم في حنين فلم تغن عنهم شيئاً، فعادوا إلى الله وإلى رسوله عندما ناداهم وذكرهم الوعد، يا أهل السمرة! يا أهل سورة البقرة، فنزلت عليهم جند الله فانقلبت الهزيمة نصراً، والحمد لله رب العالمين.



الفصل الثاني

١- أمثلة للعزة خلدها القرآن.

٢- العزّة في رسائل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العالم.

٣- مواقف من عزّة السلف.

الفصل الثاني

أمثلة للعزة خلدها القرآن

١- خلد القرآن الكريم أمثلة ناصعة للعزة والاستعلاء بالدين، وجميع الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، كانوا أمثلة للعزة والرفعة، فهذا نبي الله الخليل إبراهيم، عليه السلام، أبو الحنفية، بعد أن دعا قومه وحذرهم من الشرك، وبذل جهده ونصب في دعوة قومه، هزهم بعنف، وأعلن عداوته بقوة لمعبوداتهم وأصنامهم ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٥-٧٧].

وهذه عزة واستعلاء بدينه وتصريح بالعداوة لما سوى الله من آلهتهم ومعبوداتهم.

٢- ومن الأمثلة على العزة التي خلدها القرآن نبي الله هود، عليه السلام، عندما قال لقومه:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ١١/ ٥٥]. فهذا النبي،

عليه السلام، صرح لقومه وتحداهم عندما لم يفلح فيهم النصح والتوجيه، صرح لهم بالعداوة لمعبوداتهم وآلهتهم المزعومة، وتحداهم بشجاعة وعدم تهيب وخوف منهم ومن آلهتهم، مع أنه فرد وحيد لا جيش عنده ولا استخبارات ولا ظهر ولا شيء من الأسباب الحسية التي يتبجح بها الطغاة والمستكبرون عادة.

فقال بعدها: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ١١/٥٦].

فوكيلي الله وحده لا شريك له، فلا أبالي بكم، ولا بآلهتكم؛ لأني وثقت بربي وخالقي ثقة كبيرة تامة، فهو سبحانه وتعالى نصيري ومدبر شؤوني ومتولي أمري وأمركم.

فهود، عليه السلام، مثال للعزة والاستعلاء بالإيمان.

«وإن الإنسان ليدهش لرجل واحد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى، فيسفه عقيدتهم ويؤنبهم، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي، ولا يطلب منهم مهلة ليستعد. ولكن هذه الدهشة تزول عندما يعرف الأسباب ويتدبرها، إنه الإيمان والثقة والاطمئنان إلى الله ونصره»[١].

٣- ومن الأمثلة الخالدة على العزة سحرة فرعون عندما وقر

(١) الظلال ٤/١٨٩٩

الإيمان في قلوبهم استهانوا بتهديد فرعون واستعلَوا على قوله وفعله، وصرحوا بكل عزة وتفان أمام فرعون والحاضرين من الناس فقالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: ٢٠/٧٢]. وقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٢٠/٧٣]. وقالوا بقوة وعزة ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢٠/٧٣] وقالوا: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٥٠]. وقالوا: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٥١]. وقالوا بعزة وتحدّ لفرعون الطاغية ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴿٧٢﴾﴾[طه: ٢٠/٧٢].

ولم يكتف السحرة بالقول، وإن كان يعد هذا القول أعظم الجهاد، وهو قول كلمة الحق عند هذا السلطان الجائر، وهو فرعون، ولم يكتفوا بالقول بل قد سبق القول الفعل، فهم للتو قد رفعوا رؤوسهم من السجود لله الواحد الأحد أمام عيني فرعون، وأمام أعين البشر الحاضرين، وكانوا قبل لحظات من سجودهم كانوا أناس آخرين، كانوا يساومون على زيادة الأجر، وكانوا يقولون: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، ولكنه الإيمان الذي يغير السلوك والقول والفعل والمنطق ويغير كل شيء في الإنسان.

فقد ظهر عليهم الاستعلاء والعزة مباشرة، وكان نتيجة ذلك الاستهانة بفرعون وحاشيته بعد أن كانت هممهم وآمالهم متجهة نحو فرعون وعزته. واستهانوا بالدنيا وما فيها بعد أن كانوا يساومون على المال وزيادته من فرعون ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الشعراء: ٢٦/٤١] واستهانوا بالموت والتعذيب قبله والتهديد فقالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٢٠/٧٢] وآثروا الإيمان على فرعون ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا﴾ [طه: ٢٠/٧٢]. والعزة بالإيمان انقلبت ثباتاً على الحق لا يهزه تهديد أو يحركه وعيد، بل لقد انقلبوا من أتباع وموالٍ إلى دعاة وسادة، يبشرون وينذرون ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه: ٢٠/٧٣]. إنها عزة الإيمان، إنه الاستعلاء بالحق، إنه الثبات والطمأنينة واليقين بموعود الله المولى الناصر سبحانه.

٤- امرأة فرعون:

خلد القرآن الكريم ذكر زوجة فرعون الطاغية، مثالاً للعزة والاستعلاء بالدين، عندما اختارت الجار قبل الدار، وقالت بوضوح ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ٦٦/١١]. هذه المرأة كانت ملكة تعيش في بيت ملك في النعيم الدنيوي والرغد، وكان زوجها جباراً عنيداً مجرماً متكبراً على الحق، وهي تسمع ما

يخطّطه لموسى وقومه من المؤمنين، وترى بعينها التشريد والتقتيل لأبناء بني إسرائيل، وتلحظ الجبروت في زوجها والبطش والتنكيل بالمخالفين له، وبكل عزة وقوة واستعلاء ورباطة جأش، تعلن إسلامها ومتابعتها لموسى، عليه السلام، فلم يصدها جاه فرعون وسلطانه وجبروته وقوته فتختار الإيمان بموسى وتكفر بفرعون، وتشتاق إلى بيت في الجنة بدلاً من قصر فرعون، وتتمنى جوار الرب تبارك وتعالى عوضاً عن جوار فرعون، وترغب بالعمل الصالح بعيداً عن عمل فرعون السيىء، وترجو النجاة من الله بدلاً من الحاشية الظالمة لفرعون، وهم القوم الظالمون.

إنها العزة بالدين والإيمان على كل شهوات الدنيا ورغباتها يا لها من امرأة عظيمة! يا له من إيمان باشر القلوب!.

إن هذه المرأة من الشجاعة بمكان، حين صرحت بإيمانها عند فرعون الجائر، فكانت مثلاً قوياً في تثبيط الشيطان وحزبه، ومثلاً حياً لدعاة الحق الحاملين مشعل الخير الذين يخافون البطش ويتهيبون القضبان، ويسكتون عن قول كلمة الحق، فهذه المرأة عبرة وعظة للكلمة الصادقة والإيمان، ولذلك خلد الله ذكرها في القرآن الكريم، علّ الدعاة الصادقين يأخذون منها دفعة وشحنة فتثبتهم على الحق، وتزيدهم علواً وعزة ورفعة،

لأنها باعت بل ضحت بكل شيء، بمملكة عريضة فيها من كل نعيم الدنيا في سبيل الإيمان وكلمة الحق.

«امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه عن طلب النجاة وحدها، وموقفها من فرعون مثال للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة، استعلت على هذا بالإيمان رفعت رأسها إلى السماء في خضم هذا الكفر الطاغي، فكانت نموذجاً عالياً في التجرد من كل المؤثرات وكل الأواصر، ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد الذي تتردد كلماته في جنبات الكون...»[(١)].

٥- نبينا محمد صلى الله عليه وسلم،

خلد القرآن الكريم قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وفِعْلَه حين كان مثالاً للعزة، وقدوة للأعزاء من البشر، الذين يرفعون مبادئهم عن المداهنة والذلة، وقد حاول الكفار ثني الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحق، وحاولوا أن يجدوا ما يلائم أفكارهم ومعتقداتهم وأمزجتهم المريضة بالشك والشهوة، ولكن الله أنزل على نبيه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٦٨/٨-٩].

(١) الظلال ٦/ ٣٦٢٢

فالحق أبلج، والباطل لجج، الحق واحد لا يتجزأ، وتصديقه واجب لا ينقسم، وإلا أصبحنا كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، ومن هنا بقي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على دعوته كاملة شاملة غير مبال باقتراحات الكفار المخفقة، وكان صلى الله عليه وسلم عزيزاً لم يفتر عن بيان خطأ المشركين، وتصغير معبوداتهم من دون الله وضلال عابديها ومصدقيها، وكان هذا من بداية دعوته عندما كلمه عمه أبو طالب، أن يدع هذا الدين، ويصون نفسه عن أذية الكفار، ويحفظ عرضه من خصومة المناوئين، ولكنه قال كلمته المليئة بالعزة والثقة بربه، فدوَّت بين جبال مكة، واخترقت آذان الكفار فصمَّتهم بمعانيها والتصميم فيها فقال لعمه: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه....» [(١)].

وخلّدت سورة الكافرون قولته المشهورة بالبراءة من الشرك والمشركين ومناوأة الكفر والكافرين فقال لهم: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١٠٩/٢]. وقال لهم ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ [الكافرون: ١٠٩/٤]. وقال لهم ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦]. وقال لهم ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ

(١) السيرة النبوية/ ابن هشام ١/٢٦٦

أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٤١].

وخرج صلى الله عليه وسلم مهاجراً بدينه إلى أرض الإسلام (المدينة) وإلى أهل الإسلام (الأنصار) وقد يظن ظانٌّ أن الهجرة فيها ذِلَّة، كلّا، بل عزة وتحقيق لسنة الله في الأرض لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٦-٧٧].

وما هي إلا أيام قليلة وسنوات معدودة، حتى يعود صلى الله عليه وسلم ليهدم الأصنام أمام عابديها، ويذلَّ الشرك في عُقْر داره، وينطلق صوته في أرجاء مكة يقول: «لا يحجُّ بعدَ العامِ مشركٌ». وكان صلى الله عليه وسلم قبلها قد أنهك الكفار بالقتال والحرب لترتفع المبادئ وتعلو الرسالة، ويعز معتنقو الإسلام، ويقول لبديل بن ورقاء الخزاعي في الحديبية «.... فوالذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفردَ سالفتي ولينفذنَّ الله أمره»[1].

وكان صلى الله عليه وسلم قد أذاق الكفار مرارة الهزيمة في بدر وغيرها، وحصد جيشه المبارك صناديد كفار مكة ووجهاء

(١) مع الله، الغزالي

القوم الضالين، فكان صلى الله عليه وسلم كله إصراراً وعزة وثباتاً مع الأيام وتصرم الليالي.

فالعزة لهذا الدين، والنصر قريب من المحسنين، وانتصار الحق يأتي على أيدي المخلصين بعد جهاد شاق، وصبر طويل، وتضحية وفداء، وفي النهاية الجميلة، الغلبة لهذا الدين وأهله، وهذه سنة وقانون، سنة الله في هذه الدنيا، وما أصاب الأولين من الظالمين لن يفوت الآخرين وما هي من الظالمين ببعيد.

٢ - العزة في رسائل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى أباطرة العالم وملوكهم

إن حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كلها عزة واستعلاء على الباطل، وتتجلى عزة الواثق بموعود الله ونصره في مواقفه ورسائله لملوك العالم، حيث تتجلى العزة بينة مشرقة في هذه الرسائل، وإليك مقتطفات من تلك الرسائل العزيزة.

١- أرسل صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي رضي الله عنه إلى هرقل ملك الروم وجاء فيها «...... أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأكاريين»[١].

وفي البخاري ومسلم: «فإن عليك إثم الأريسيين».

(١) الرحيق المختوم ٤١٦

٢- أرسل صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك القبط وجاء في رسالته «.... أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم...»[١].

٣- أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب، رضي الله عنه، إلى ملك غسان، المنذر بن الحارث الغساني وجاء في كتابه «..... إني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك...» [٢].

٤- أرسل عمراً بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وجاء في رسالته صلى الله عليه وسلم «....... وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً من المسلمين، فإذا جاؤوك فأكرمهم، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله.....»[٣].

٥- أرسل سليط بن عمرو إلى ملك اليمامة في نجد ومما جاء في رسالته «.... واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم...».

٦- أرسل رسالة قوية إلى ملك عمان، جاء فيها: «.... وإن

(١) الرحيق المختوم ٤١٦
(٢) الرحيق المختوم ٤١٦
(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٦٥٢ (انظر مواقف نبوية)

أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما....»[1].

٧- وكتب صلى الله عليه وسلم إلى ملك أيلة وأهلها رسالة جاء فيها: «.... فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا أخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير..... وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش.......»[2].

وتظهر العزة والغلبة والثقة بالله وبموعوده في رسائل المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو يرغب الملوك في الإسلام ويخوفهم ويحذر وينذر، ويربط بين إجابة دعوة الرسل ودخولهم في الإسلام وبين بقاء ملك الملوك أو زواله ومن رفض الدخول في الإسلام ككسرى زعيم المجوسية وملك غسان، فقد مزق الله ملكهم، جزاء ردهم للإسلام ولرسل المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وتظهر العزة في رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله وثقته بالله فيقول: دع التجبر، واسلم تسلم، والتهديد بالقتال والإنذار ببلوغ الدين كل مكان والتهديد بالشدة والقتل والسبي

(١) ابن هشام ٣٧٥

(٢) ابن سعد ١/٢/٢٧/٢٨ (انظر مواقف نبوية)

بهدف الضغط على أهل الذمة الذين أزداد أذاهم للإسلام والمسلمين.

وقد وضع صلى الله عليه وسلم أساليب دعوة رؤوس الكفر وأساليب الدبلوماسية وتبليغ الدعوة للملوك والرؤساء من ملل الكفر والطغيان.

مواقف من عزّة السلف

١- موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من حرب المرتدين وإنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه

وقف أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، موقف عزة، نصر الله به الحق، وخذل به الكفر، ولأن إيمان أبي بكر يزن إيمان هذه الأمة كان نصيبه من العزة على قدر إيمانه وقوته، فأبو بكر الخاشع البكاء، الرقيق اللين الرحيم، ينقلب في لحظات قوةً عظيمة تشبه البحر الهائج، والليث الزائر، يصيح في وجه عمر «أجبار في الجاهلية، خوّار في الإسلام يا بن الخطاب، لقد تم الوحي واكتمل، أفينقص وأنا حي؟».

يذكر السيوطي[١] «عن عمر رضي الله عنه قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتد من العرب، وقالوا: لا

(١) تاريخ الخلفاء / ٥٥

نصلي ولا نزكي، فأتيت أبا بكر فقلت: يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، جباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام، والله لأجاهدنّهم ما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالاً....».

وقال رضي الله عنه: «والله لو منعوني عقالاً أو عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها، والله لأقاتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة»[1].

فرضي الله عن أبي بكر الذي نصر الإسلام وأعزه بعد أن ارتد العرب، وقاتل مانعي الزكاة ومسيلمة الكذاب في اليمامة.

وكذلك وقوفه رضي الله عنه من إنفاذ جيش أسامة، فقد راجعه بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التريّث وإبقاء الجيش فقال: «والذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ما رددت جيشاً وجّهه رسول الله ولا حللت لواء عقده»[2]. فجعل لا يمر جيش أسامة بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم.

---

(١) تاريخ الخلفاء ٥٦

(٢) تاريخ الخلفاء ٥٧

وقال رضي الله عنه: «والله لأن تخطفني الطير أحبُّ إلي من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثه»[١].

فوقوف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، من حرب المرتدين، وإنفاد جيش أسامة لهو العزة بعينها، عزة الواثق بالله المؤمن بنصر الله، فعز أبو بكر و نصر الإسلام فأعزه الله ونصره، وأعلى من ذكره فرضي الله عنه وأرضاه.

٢- موقف الأنصار رضي الله عنهم قبل بدر الكبرى

عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج معه الجيش المبارك لملاقاة العير والظفر بها، في الطريق تغيرت الخطط والأهداف فعقد صلى الله عليه وسلم القائد الأعلى للجيش مجلساً استشارياً، لتبادل الرأي مع قواته لينظر إلى المعنويات عند جيشه؟ فقام أبو بكر فقال وأحسن، وقام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد فقال وأحسن، فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء الثلاثة من المهاجرين، وهم أقلية، فأحب صلى الله عليه وسلم أن يعرف رأي قادة الأنصار، لأنهم كانوا يمثلون الكثرة في الجيش، وقال صلى الله عليه وسلم: «أشيروا على أيها الناس» ففطن سعد بن معاذ رضي الله عنه لمقولة رسول الله، فقال: لكأنَّك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. فقام سعد،

---

(١) المرجع السابق

وقال خيراً ومما قاله «..... فامض يا رسول الله! لما أردت فو الذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد..... فوالله! لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك...»[1]. فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قاله سعد.

فسعد نصر الإسلام في هذا الموقف، وكان عزيزاً، وتحدَّث عن قومه (الأنصار) وكانوا كذلك، فرضي الله عنهم أجمعين. وموقف سعد وقومه، وموقف عز واستعلاء بالدين وبرسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣- موقف جعفر بن أبي طالب مع النجاشي

عندما ضيق كفار قريش الخناق على المسلمين في مكة، خرج قوم منهم مهاجرين إلى الحبشة، الهجرة الثانية، وكان ممن هاجروا جعفر بن أبي طالب، وكان المتحدث الرسمي للمسلمين، ولحق بهم الكفار لتحريض النجاشي عليهم وطردهم من الحبشة، فوقعت بعض الأمور.

قال أبو موسى الأشعري «انتهينا إلى النجاشي وهو جالس وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون

(١) الرحيق المختوم ٢٤٦

جلوس، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك، فقال جعفر قولته المشهورة التي أصبحت شعاراً لكل مسلم: «لا نسجد إلا لله».

وهذه قولة فيها عزة ورفعة واستعلاء، فرغم الاضطهاد والبعد عن الأهل والوطن والغربة والتشرد، إلا أنهم بقوا أعزاء محافظين على التوحيد، فرضي الله عن جعفر وأرضاه كم كان عزيزاً؟

٤- موقف عبد الله بن حذافة السهمي

إن سلفنا الصالح كانوا شديدي الاعتزاز بدينهم، لم تثنيهم الرغبات، ولم تخدعهم المظاهر الدنيوية الجوفاء، ولم تفتَّ في قواهم وعزتهم الماديات والتضخيم الإعلامي لقوى الشر وما يملكون، فهذا الصحابي الجليل، لما أسرته الروم جاؤوا به إلى ملكهم فقال له تنّصر وأنا أشركك في ملكي، وأزوجك ابنتي، فقال له بعزة واستعلاء وثقة بما عند الله: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. فقال: إذن أقتلك، قال: أنت وذاك، فأمر به فصُلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه لتخويفه، وهم يعرضون عليه النصرانية فيأبى، ويستخدم معه الملك أسلوب تهديدي آخر، ولكنه يرفض النصرانية بكل قوة وإباء وثقة.

فهذه هي عزة المؤمن الصادق الذي يتمنى أن له بكل شعرة نفس تعذب في الله ليلقى جزاء موعودها غداً عند الله.

٥- موقف أم سليم الأنصارية

اسمها سهلة، وتلقب بالرميصاء، أسلمت بعد دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وقتل زوجها، وتقدم لها كثيرون وكانت ترفض حتى يكبر ابنها أنس بن مالك، فلما كبر أنس خطبها أبو طلحة زيد بن سهل بن حرام، وكان ما يزال مشركاً، فقالت له: إن مثلك لا يرد، ولكني أسلمت ولا أحل لك، فإذا أسلمت تزوجتك، وقد عرض عليها أبو طلحة ما تشاء من الذهب والفضة وكان غنياً، فقالت له: لا أريد صفراء ولا بيضاء، إنما أريد منك الإسلام ويكفيني إسلامك مهراً، وأنار الله قلب أبي طلحة وقصد مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، وأسلم بين يديه وأخبره بما قالت أم سليم، فكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: ما بلغنا مهراً كان أعظم من مهر أم سليم»[١].

فضربت رضي الله عنها مثالاً للعزة بالإسلام ومثالاً للاستعلاء على الدنيا وحطامها، وأدخلت هذا الصحابي دين الإسلام، فاستعلت ذكراً ونالت شكراً، وكانت أعظم مهراً فرضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) الرسول العربي المربي ١٣٩

٦- موقف السَّعْدين في الأحزاب

لما رمى الشرك والنفاق المدينة بعشرة آلاف مقاتل في الخندق، وغدر بنو قريظة من اليهود العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ المسلمين غدرهم، اشتد البلاء، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما، فاستشار صلى الله عليه وسلم السَّعَدَيْن[1] في ذلك، فقالا: يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعاً، وحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا؟ والله! لا نعطيهم إلا السيف، فصوّب رأيهما[2].

فمقالة السعدَيْن تنضح عزة ورفعة حتى في وقت الشدة والبلاء، والأمثلة التي تم استعراضها أمثلة للعزّة، وتظهر هذه العزة وتتجلى واضحة عند الشدائد والأزمات، لأنه فيها يتجلى الإيمان، ويظهر صدقه، فتظهر العزة وتبلغ مداها حين يشتد البلاء، وتعظم المحن، فرضي الله عن السَّعْدَين وأرضاهما جزاءَ ما عزَّا واستعليا بعزة الله.

---

(١) هما سعد بن عبادة وسعد بن معاذ من الأنصار.

(٢) الرحيق المختوم ٣١٧

أمثلة للعزة قبل معركة القادسية

الرعيل الأول، والسلف الصالح، والجيل القرآني الفريد، بلغ ميزات لم يبلغها الخلف جيلاً بأكمله. وذلك الرعيل كان يحمل المعاني الكبرى والمشاعر الرفيعة للإسلام، وقد سرت هذه المعاني في كيان الجيل، فجعلت منه بشراً عزيزاً كريماً رفيعاً مستعلياً كبيراً في الهم والهمة، عظيماً في نفسه وفي نفوس الآخرين، وسوف أختصر كثيراً مما دار قبل معركة القادسية، وسأذكر بعض النماذج من ذلك الجيل الفريد رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

أ- النعمان بن مقرن المزني

كتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، أن يبعث وفداً من ذوي الحكمة والرأي إلى ملك الفرس يعرض عليه الدخول في الإسلام إعذارًا إلى الله،. فبعث سعد وفداً رفيع المستوى برئاسة النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، وانتهى الوفد إلى الملك، فقال لهم: «سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أننا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟»[1]. فأستاذن النعمان من وفده للإجابة على الملك فقال كلاماً حسناً عن رسول الله

(١) القادسية و معارك العراق٥٣٩. وأجممناكم: أعطيناكم الكثير.

وعن الإسلام إلى أن قال: «..... ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون، الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، يعني الحرب»[1].

رد الملك على النعمان بكلام فيه غرور وكبرياء، فسكت القوم.

وأستاذن رجل آخر من رئيس الوفد وتكلم وهو:

ب- المغيرة بن زرارة الأسيدي

فقام المغيرة رضي الله عنه وكان من الوفد وخطيباً مفوهاً، وقال عن رسول الله ﷺ: «...فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فمن قتل منكم أدخلته جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك»[2].

---

(١) الطبري ٣/ (٤٩٧ - ٥٠١)

(٢) الطبري ٣/ (٤٩٧ - ٥٠١)

وهذه كلمات كلها تنبض عزة ورفعة واستعلاء، فغضب الملك، ولم يتوقع أن صحراوياً يتكلّم في إيوانه بمثل هذا الكلام وقال لهم: «لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم»[١] فخرج القوم ورجعوا إلى قائدهم سعد رضي الله عنهم أجمعين.

واستمرت المفاوضات مع قائد الفرس (رستم) هذه المرة، وكانت المفاوضات فردية، وبعث سعد رجلاً خلد التاريخ مقالته، فغدت مثلاً ودستوراً، لأنه اختصر الإسلام في كلمات مضيئة مشرقة.

جـ- ربعي بن عامر يخرق بساط رستم

ربعي بن عامر، رضي الله عنه، باشر الإسلام قلبه، وأضاءت آيات القرآن بصيرته، فغدا معتزاً بدينه وعقيدته، عزيزَ النفس، عاليَ الرأس، أبياً للضيم، عصياً على الذل والهوان، وشاعراً مؤمناً بمعية الله الخاصة له، فلم يأبه بكبر رستم ولا بأبهته وزينته، فداس عليها بفرسه قبل أن تطأها رجله، ومزق نمارقها برمحه، سخرية بهم، وشق وسائدهم ليربط بها فرسه، ليعلمهم أن الدنيا وزينتها لا تساوي شيئاً عندهم، وليس الفخر بالشكل، ولكنه الدين العظيم، والتمسك به، والتضحية من أجله بالنفس والنفيس.

---

(١) القادسية و معارك العراق ٤١٤

دخل ربعي بن عامر، رضي الله عنه على رستم يتوكأ على رمحه، ويزج النمارق والبسط فما ترك نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، فجلس على الأرض، فقالوا له في ذلك: فقال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، وبدأت المناظرة، بين المعتز بدينه، وبين رستم، فقال له: ما جاء بكم؟.

قال ربعي: الله ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عباده، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا إلى خلقه ندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله، ودار الحوار بينهما، إلى أن انتهي، فقال رستم لقومه: هل رأيتم كلاماً قط، أوضح وأعز من كلام هذا الرجل؟[1].

وغادر ربعي مجلس رستم عزيزاً منيعاً، سفّه زينة القوم، ومرّغ كبرياءهم في الأرض، وأسمعهم كلاماً لم يسمعوا بمثله من قبل.

فأرسل في اليوم التالي إلى سعد (أن ابعث إلينا ذلك الرجل) يعني ربعياً، ولكن سعداً كان ذكياً قائداً محنكاً، يريد أن يرى

---

(١) القادسية و معارك العراق ٥٨٢

رستم رجاله الأبطال، والقوم الذين رماهم عمر بهم، قوم يحبون الموت كما يحب الفرس الحياة، فبعث سعد رضي الله عنه رجلاً آخر وهو:

د- حذيفة بن محصن الغلفاني رضي الله عنه

حذيفة قائد لأحد الألوية الأحد عشر في حروب الردة، ويصل حذيفة إلى بساط رستم ويدور الحوار بينهما ويقول حذيفة: «.... فنحن نخيركم بين إحدى ثلاث، الإسلام ولكم فيه ما لنا وعليكم ما علينا، ليس فيه تفاضل بيننا، أو الجزية وأنتم صاغرون أو الحرب، والإسلام أحب إلينا منهما.....»[1].

وسأل رستم عن كلمة وأنتم صاغرون ففسرها له حذيفة فاشتاط غضباً، وأمر بإخراج حذيفة.

وفي اليوم التالي بعث رستم إلى سعد أن ابعث لنا رجلاً، فبعث لهم رجلاً من أدهى العرب وأبصرهم بالحجة، ومن أحسنهم منطقاً وهو:

هـ- المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

دخل المغيرة وله أربع ضفائر، ومازال حتى جلس مع رستم على سريره ووسادته، فنَخَرَ أخو رستم، ووثب الفرس، فترتروه

---

(١) القادسية و معارك العراق ٥٢٨

ومغشوه، فقال المغيرة في ثبات وعزة واستعلاء: «لا تنخر فما زادني هذا شرفاً ولا نقص أخاك، كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه.. اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا يقوم على هذه العقول....»[1].

ووصلت المناظرات إلى طريق مسدود مع رستم، وأبى إلا الحرب، وخسر الحرب وهرب، وانتصر الجيش المسلم، بعد أن أفحم ملك الفرس يزدجرد وقائدهم رستم، فعز الجيش، وغُلب الكفر في الحوار وفي أرض المعركة، ولقَّنوا الفرس درساً سيبقى خالداً مدى الدهر، فرضي الله عن أولئك القوم الأعزاء.

عبَّادُ ليلٍ إذا جَنَّ الظَّلامُ بهم
كم عابدٍ دمعُهُ في الخَدِّ مَجْراهُ
وأُسْدُ غابٍ إذا نادى الجهادُ بهم
هبُّوا إلى الموتِ يَسْتَجْدون رُؤْيَاهُ
يا ربِّ فابعثْ لنا من مثلِهِمْ نفراً
يشيِّدون لنا مجداً أَضَعْنَاهُ



(١) المصدر نفسه

الفصل الثالث

١- أسباب العزة

أ- الإكثار من قول: لا إله إلا الله، والعمل بمقتضاها

ب- العلم

جـ- طاعة الله والعمل الصالح

د- الجهاد

٢- بعض مظاهر العزة في المجتمع

أ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ب- العفو والتسامح

جـ- القناعة

د- العدل وتنفيذ الحدود

٣- آثار العزة على النفس

أ- الثبات على الحق

ب- علو الهمة

جـ- الطمأنينة

د- السعادة

الفصل الثالث

أسباب العزة

العزة عظيمة الشأن بعيدة المنال، تغرس السمو والشموخ في النفس، والعزة تشعر الإنسان المسلم بكرامته، ومكانته في الحياة وقيمته في الوجود، وغايته من البقاء في الدنيا، ورسالته الموكول إليه أداؤها، والعزة تميز المسلم من المخلوقات الأخرى، وتعطيه القوة الذاتية، فيشعر بأن عزته مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] وهو من المؤمنين فالخطاب له، ويشعر بالعزة ويأخذها من قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].

وهو من هذه الأمة التي أخرجت للناس!. ويشعر بالعزة يوم يسمع ويقرأ قوله تعالى ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢] وهو مجتبى من هذه الأمة المجتباة.

ويشعر بالعلو والرفعة يوم يوقن بقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٤١] وهو من المؤمنين،

وكذلك يشعر بالنصر والغلبة والمعونة يوم يؤمن أن الله وليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]. وهو من الذين آمنوا وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد: ٤٧/١١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٨].

كل هذه الأمور تغرس في النفس العزة والكرامة والسمو والعلو عن التوافه والصغائر من الأمور، وهذا يقود إلى أن العزة ليست مستحيلة المنال، بل هي قريبة التحقق، واضحة الطريق، ولكنْ لها أسباب تتحقق بها، وتتمكن بها في نفوس الأفراد والمجتمع وسوف أقتصر على الأسباب الرئيسة في نظري وهي:

أ- الإكثار من قول: «لا إله إلا الله» والعمل بمقتضاها في جميع شؤون المسلم

أعظم كلمة يقولها الإنسان هي كلمة التوحيد، ولذلك كانت الركن الأول من أركان الإسلام، والعلامة الفارقة بين الإسلام والكفر، وبها نادى المصطفى صلى الله عليه وسلم قريشاً، وأول ما دعاهم إليها، وقال لهم: تدين لكم العرب والعجم وعليهم تظهرون، ولأجل هذه الكلمة قامت الدنيا، قال ابن رجب في

فضائلها حيث أورد قول سفيان بن عيينة: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله، ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، وهي مفتاح الجنة....»[1].

ولن أتعرض لمعناها وشروطها وحقيقتها ونواقضها هنا، فهي تبحث في كتب العقيدة، ولكنني سأتعرض لبعض آثارها والإقرار بها في حياة الإنسان وكيف تغرس فيه المبادئ، ومنها مبدأ العزة الذي نحن بصدده، وسوف أختصر هذه الآثار من العالم أبي الأعلى المودودي، رحمه الله، قال في كتابه القيم (مبادئ الإسلام): إن هنالك تسعة آثار لكلمة التوحيد:

١- المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر؛ أي إن هذه الكلمة توسع مدارك الإنسان وتصوُّرَه لكل شيء، لأن الله خلق السموات والأرض والكون الفسيح والنجوم والمجرات، فالمؤمن يستمد بعده في النظر من هذا الكون الفسيح، وهذه المخلوقات الكثيرة العظيمة وهذه الخلايا المتعددة الأنواع والأشكال والوظائف.

٢- الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في الإنسان الأنفة، وعزة النفس وما لا يقوم دونه شيء. فيوقن أن الله المالك الحقيقي لكل

(١) الولاء و البراء ٥٤

هذا الكون وما فيه، فلا ضار ولا نافع إلا هو ولا محيي ولا مميت إلا هو، ولا صاحب سيادة إلا هو، فهذا العلم ينزع الخوف من القلب فلا يطأطئ لأحد من الخلق، ولا يخاف ولا يعلق آماله بأحد سوى الله، وهذا لا يتصف به إنسان غير المؤمن بهذه الكلمة).

٣- الإيمان بهذه الكلمة مع عزة النفس التي ينشئها في الإنسان ينشئ التواضع من غير ذل والترفع من غير كبر، مهما حصل للإنسان من علم أو جاه أو مال أو غيره، لأنه يوقن أن الله هو المعطي وهو الواهب، وقادر على سلب هذه النعم إذا شاء في لحظات.

٤- المؤمن بهذه الكلمة يعلم علم اليقين أن السبيل إلى النجاة والفلاح هو العمل الصالح وتزكية النفس.

٥- المؤمن بهذه الكلمة عنده ثقة كبيرة في الله، فلا يتسرب إليه اليأس ولا يقعد به القنوط في أي حال من الأحوال؛ لأنه يؤمن ويوقن أن الله له خزائن السماوات والأرض، وأنها مليئة، فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، مهما ضاقت السبل وانقطعت الأسباب، على العكس من الكفار الذين يعتمدون على الأسباب المادية والقوى المحدودة، فسرعان ما يداخلهم اليأس، ويحيط بهم القنوط عند الشدائد.

٦- الإيمان بهذه الكلمة يربّي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والصبر والإقدام والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور ابتغاء مرضاة الله، لأنه يوقن أن وراءه قوة عظيمة، هي قوة ملك السماوات والأرض، فلا تثبطه أي مصيبة من مصائب الدنيا.

٧- هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة، لأن الذي يجبن الإنسان ويوهنه شيئان، حبه للنفس والمال والأهل أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان، فالإيمان بهذه الكلمة ينزع من القلب هذين السببين، فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ونفيس عنده، وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع ولا سيف ولا حجر ولا مرض وإنما يقدر على ذلك الله وحده.

٨- الإيمان بلا إله إلا الله، يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

٩- الإيمان بلا إله إلا الله يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله ومحافظاً عليه، والمؤمن يعتقد بيقين أن الله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من

بطس أيٍّ كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عز وجل، وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدوده، لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله» أ. هـ

فالإيمان بهذه الكلمة عز ورفعة ونور في القلب ويقين جازم لا تؤثر فيه الشكوك والشبهات ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ٤٩/١٥] والإيمان بهذه الكلمة العظيمة إذعان وانقياد ينتج عنه الخضوع والطاعة والرضاء والتسليم بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٤/٦٥].

والإيمان بهذه الكلمة التزام صادق بمبادئ الإسلام المشرقة في جميع الجوانب الخاصة والعامة. والإيمان بهذه الكلمة تضحية بكل غال ونفيس من نفس ومال وولد في سبيلها ومن أجل رفعتها.

والإيمان الصادق بهذه الكلمة يثبت في القلب، فلا تهزه رياح الشهوات، ولا أعاصير الشبهات، فلا الفاتنات والساقطات، ولا الكأس ولا الغانية، ولا قوى الباطل وسلطان الهوى، ولا زخرف الجاه والسلطان الذي يشكك في ثوابت الدين، ولا

أقلام الغلاة ولا ألسنة الجفاة من العَلْمانيين وغيرهم، فهذا هو الإيمان الصادق نسأل الله الثبات ونصرة الحق.

ب- السبب الثاني من أسباب العزة هو العلم

العلم: نور يضيء الطريق للسالكين، ويوضح السبيل، وهو شعاع نافذ قوي في الظلمات، وقبس يزيل اللبس عن المجهول، وهو طاقة هائلة تنير للإنسان حياته، يعتمد على أسس؛ منها المشاهدات المرئية: «فالبعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا تدلُّ على اللطيف الخبير»[(١)]. إنها المشاهدة الصادقة الواعية. فالعلم يفسر الحاضر ويفهم المستقبل، يراقب الكون واتساعه الكبير البعيد، والذرة و(الإلكترون) القريب.

العلم منحة ربانية وفضل من الله، عظّم الله شأن العلم والعلماء، «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[(٢)].

هذا يقودنا إلى أن العلم ليس علم الأرض وحدها، ليس العلم المادي التجريبي، لماذا؟.

(١) من خطبة مشهورة لقُس بن ساعدة الإيدادي

(٢) رواه أحمد. انظر تخريج قبسات من الرسول)

لأن هذا العلم يعتمد على المحسوسات، يبدأ منها، وينتهي إليها، لا يعترف بعالم الغيب، ولأنه يعتمد على الملاحظة والتجربة والخطأ، فمثلاً صعود الجبل يحتاج لطاقة أكبر من النزول من الجبل، ورفع الطاولة عن الأرض أشق من رفع كتاب للمسافة نفسها، وقذف الكرة إلى أعلى أصعب من نزولها، وجميع الأشياء تسقط إلى الأرض.

هذه ملاحظات لا يوجد رابط بينها.

ولكن قوة الجاذبية في كتلة الأرض تفسر جميع هذه الملاحظات، نظرية فسرت واقع الأشياء

والعلم التجريبي المادي يعتمد كلياً على المادة، وهي الجسد، ويغفل الروح، وهي الشق الثاني من الإنسان، فهذا العلم صنع تقدماً وقوة بلا دين ولا أخلاق.

ولذلك فالعلم المادي سمع ما يدور في المكالمات في أقصى الأرض ورأى حياً على الهواء ما يحصل من ظواهر في الفضاء وفي مجرات وفي كواكب بعيدة عنا جداً، ونقل أعضاء من موتى إلى أحياء واكتشف البترول والمعادن على عمق عشرات من الكيلومترات في باطن الأرض بالأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض، على مسافات بعيدة عنها، وأسقط المطر بوسائل صناعية، بل استنسخ أحياء من أوليات، كل هذا التقدم العلمي والترف المادي، جعل العلم غاية، وهو ليس كذلك .

وكل هذا العلم جعل الناس في حيرة ونكد، ولم يقدم لهم السعادة والطمأنينة، هيأ وسائل الحياة، اختصر المسافات، قصر الزمن، أراح الظاهر وأشقى الباطن، أعطى الإنسان الأدوات والوسائل، وسلب منه القيمة والهدف السامي. جلب للإنسان العين السحرية على الأبواب، لأنه أفقده الأمن والأمان؛ ليكتشف اللصوص قبل مداهمتهم، أعطى الإنسان جرس الإنذار لخزائن المال والذهب، لأنه لم يغرس في الناس مبدأ الخوف من الله، صنع للإنسان أجهزة لاكتشاف (الكوليسترول) والسكر وجلطات القلب والدماغ، لأنه لم يحصن هذه الأعضاء بالعلاج الديني من صيام وأدعية وتوكل، وصنع أجهزة للإضاءة الخارجية ونسي النور الداخلي الرباني وقدم طاقة (الإلكترون) و(البروتون) في القنابل والمدمرات ونسي طاقة الضمير والوجدان التي تتحكم بإلقاء هذه القنابل على الناس والشعوب، وماذا كانت النتيجة؟.

مزيداً من الخراب والدمار للشعوب، ومزيداً من الهموم والاكتئاب والمصحات النفسية، ومزيداً من الإدمان والسكر والانتحار والجنون، لأن هذا العلم لم يقدم علاجاً للروح، ولا سعادة، ولا طمأنينة، ولم يعطها قيمة كبيرة وهدفاً سامياً رفيعاً تحيا من أجله وتموت في سبيله.

وقبل هذا الكلام وبعده لا يفهم من كلامي أنني أنتقص

العلم المادي والتقدم التكنولوجي، لا...! ، لأن ديننا الإسلامي أعلى من شأن العلم عامة، لأنه يدل على منزل العلم وموجده ومعلم البشرية جمعاء الله الواحد الأحد!، ولكن حين يصبح وسيلة لا غاية وحين يحترم العقل ويحترم البشرية والشعوب، ولا ينتقص منها ويذلها، وحين يوازن بين المادة والروح، ويتصرف على أنهما واحد لا اثنان.

حينها يكون هذا العلم عزاً ورفعة للأمة وليس العكس. والعلم الذي أقصده سبباً من أسباب العزة، ليس علم الحيوان، بل علم رب الحيوان، ليس علم الكيمياء الجزيئية بل علم موجد الجزيئات، وليس علم الذرة و(الإلكترون) والكهرباء. بل العلم الدال على معلم هذه العلوم وموجدها، لأن تلك العلوم هي علوم الظاهر من أمور الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٧].

وعلم الظاهر هام، ولكن هناك علم أهم، علم الظاهر يدل على الدونيات، ولكن العلم الشرعي يدل على العلويات والإيمان بالغيبيات، فالعلم بالله هو أشرف العلوم وأعظمها، وهو ذروة العلوم، لأنه منزل من عند الله ودال على عظمة الله.

والقرآن الكريم والسنة المطهرة حفلت بكثير من الأمثلة على

العلم الإلهي فذو القرنين بنى سداً من زبر الحديد لحجز شر قوم أشرار بعلم من ربه فبقى قروناً وقروناً، بينما أنهار سد مأرب بسبب فأرة لأنه علم بشري ظاهري، والعبد الصالح الذي التقاه موسى عمل أعمالاً للمستقبل بعلم إلهي فبقيت وحققت ما أُريد منها، مما جعل نبي الله موسى يقف مبهوراً منها.

والذي عنده علم من الكتاب نقل عرش ملكة من ملوك الأرض في زمن خيالي في طرفة عين، تقطعه السرعة البشرية في ساعات وأيام.

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعلم سافر في ليلة إلى المسجد الأقصى وإلى السماوات السبع وإلى سدرة المنتهى وعاد من ليلته، بينما لا يستطيع العلم البشري أن يقطع شيئاً من ذلك.

والعلم الرباني علّم نوح، عليه السلام، أن يصنع السفينة في أرض يبس لا بحر ولا نهر ولا هما قريبان منه، فأثار السخرية والشكوك في نفوس الكفار، ولكنه العلم الذي لا يخطئ لأن مصدره علوي رباني منزّه عن الخطأ، وما هي إلا أيام وسنوات حتى تفيض الأرض وتمطر السماء ويَغْرقُ الظالمون.

والعلم الرباني يعلّم موسى، عليه السلام، أن يضرب البحر فينشق إلى فلقتين يبساً، فيسير عليه قوم موسى.

والعلم الرباني يعّلم إبراهيم، عليه السلام، أن يترك هاجر

وإسماعيل في واد غير ذي زرع، يخيف ويوحش، وما هي إلا أيام وسنوات حتى يفد إليه الناس، وتهوى إليه القلوب.

علم الأنبياء جميعاً عليهم السلام علم رباني علوي من لدن الله سبحانه وتعالى، ولذلك لا يخطئ أبداً.

فالعلم الرباني علم يقرب البشر من خالقهم، ويقرب القلوب من بارئها، ويهديها للفطرة، العلم الرباني نور وحكمة ومعرفة بالله وأسمائه وصفاته، إيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته وبالقدر وبالغيب وبالجنة والنار، علم يزيد التعلق بالله فيهب السعادة للفرد، ويغرس الطمأنينة في النفوس، ويعلم الخشية من الله ويحث على العمل الصالح والطاعة الدائمة والعبادة المتواصلة والتسبيح والذكر باسم الله، ومن ثم يكون إنساناً عزيزاً النفس عالي الهمة، يؤثر العزة والرفعة والاستعلاء على الدنايا والتوافه، ويشعر الإنسان بقيمته ومكانته في الكون.

والعلم الرباني يربي الناس على القيم والمبادئ السامية التي جاء بها الدين الإسلامي، لا لترفع شعاراتٍ؟! بل لتتحقق في واقع الحياة ويراها الناس في جميع شؤونهم واقعاً ملموساً.

والعلم الرباني يربي ضمائر البشر وقلوبهم على الحق والصدق والمراقبة والخشية من واحد أحد، أينما وحيثما وجد الإنسان يكون ذا قلب حي، وضمير نابض بالقيم والمبادئ التي تعلمها.

وإذا تحققت هذه المبادئ في نفوس البشر وعقولهم وقلوبهم تكوّن الإنسان العابد لله بالمعنى الشامل الواسع، الذي صلح باطنه وظاهره؛ فأقام المجتمع المنشود في الأرض بعمارتها بالحق والعدل وانتهج نهج الأنبياء والرسل، عليهم السلام. ومن ثم تحولت المبادئ والقيم إلى واقعاً ملموساً في حياة البشر، وشعر عندها المسلم بالعزة والرفعة والاستعلاء.

اللهم علمنا ما ينفعنا، ويقربنا إليك، وزدنا علماً يشفع لنا عندك، ويزيدنا خشية منك، ويحثنا على طاعتك، ونعوذ بك من علم لا ينفع، ولا يقربنا إليك يا حي يا قيوم.

جـ - طاعة الله والعمل الصالح

من الأسباب الجالبة للعزة، طاعة الله، وإشغال النفس بالكلم الطيب، والعمل الصالح، وقد جاءت الآيات الكريمة موضحة لهذا المعنى، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

قال ابن سعدي[١]: يا من يريد العزة، أطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله ولا تنال إلا بطاعته، وهذه الأعمال الصالحة التي ترفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

(١) تفسير ابن سعدي ٤/ ٢٢٢

فالكلم الطيب من ذكر لله تعالى، والعمل الصالح بالجوارح يرفع الإنسان ويعزه في الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: «إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ولا يجدونها إلا في طاعة الله جل وعز».

وقال بعضهم: من أراد عزاً بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

وفي الدعاء المشهور «اللهم أعزَّنا بطاعتك ولا تذلَّنا بمعصيتك».

فالطاعة لله كلها عز ورفعة واستعلاء.

وقد أوصى عمر رضي الله عنه سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قبل التوجه للقادسية بكلمات جميلة منها... «فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة»[1].

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾ [يونس: ١٠/٢٦].

يخبر سبحانه وتعالى أن أصحاب العمل الصالح وطاعة الرحمن

---

(١) القادسية و معارك العراق ٤٧٣٠

في الدنيا، لهم الثواب الحسن والجنة والزيادة على ذلك كله من النظر إلى وجه الرحمن عز وجل، ووجوههم بخلاف وجوه الكفار، فلا يعتري وجوههم السواد، ولا يصيبهم الهوان والذلة والمهانة والإهانة، فجزاء ما عملوا من الطاعات لقاهم الله نضرة في وجوههم وبياضاً وسروراً وحبوراً في قلوبهم.

أما أصحاب الذنوب والمعاصي والسيئات فلهم الذلة والهوان، ووجوههم سوداء كالحة كظلام الليل جزاء ما اقترفوا من المعاصي والآثام ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ١٠/٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٥].

فالطاعة عز ورفعة في الدنيا، ونعيم وكرامة في الآخرة، وقد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وقد خاب وخسر من لطخها بالمعاصي والذنوب ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠]. وقد ربط الله في كتابه الكريم بين الذلة وبين المعاصي والذنوب في الدنيا، فبنو إسرائيل أصابتهم الذلة في الدنيا، وأصبحوا مهانين أذلاء، واستحقوا غضب الله بسبب كفرهم بآيات الله ومحاربتهم للأنبياء والتعدي عليهم

بالقتل بغير حق، وعصيانهم وفوق هذا بسبب اعتدائهم واستكبارهم على الحق.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦١].

وقوم موسى أصابهم الذل والهوان في الدنيا وسيصيبهم كذلك العذاب الشديد في الآخرة، وهم يعرضون على العذاب غدواً وعشياً نظير ما عملوا من الذنب العظيم، حيث اتخذوا العجل رباً وإلهاً لهم في فترة غياب موسى، عليه السلام، ولذلك ربط الذنب بالذلة والهوان في الحياة الدنيا، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٢].

وكذلك الكفار الذين دعوا إلى الصلاة والسجود لله واتباع أوامره في الدنيا ولكنهم تكبروا وتجبروا يأتون يوم القيامة خائفين خاشعين من الذل والهوان، أبصارهم شاخصة وترهقهم ذلة وصغار وهوان، قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٣].

ويفهم من الآيات الكريمات أن عكس المعاصي والذنوب

وهو الطاعات وأعمال الجوارح من مرضاة الله يعز النفوس، ويكبرها في الدنيا، ويدخلها الجنة والرضوان في الآخرة، والسجود لله وكثرة الصلاة سبب للعزة والرفعة ودخول الجنة وقد طلب صلى الله عليه وسلم من صاحبه وخادمه الخاص - وهو يعتلي الكعبة يوم الفتح - أن يرفع الآذان ويصدح به في أرجاء أم القرى.

وهذا عبد الله بن مسعود من راعي غنم صغير إلى صحابي جليل يمدحه صلى الله عليه وسلم ويقول في ساقيه «لهما أثقل من جبل أحد». وهذا أبو موسى الأشعري اليماني المعدم يقول فيه «لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود»... وهذا صهيب التاجر الصغير يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قدم مهاجراً إلى المدينة: «ربح البيع أبا يحيي».... وكثيرون هم الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين زكاهم، صلى الله عليه وسلم، وشهد لبعضهم بالجنة، ونزل القرآن يمدحهم ويثني عليهم.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ٤٨/١٨].

والسؤال الذي يطرح نفسه......!

لماذا رفعهم الله وأعلى من شأنهم؟

إنها بسبب طاعة الله، بسبب إيمانهم بالله ورسوله، بسبب

تضحيتهم بكل ما يملكون بما فيها أنفسهم في سبيل هذا الدين ورفعته، فكان جزاؤهم العزة في الدنيا والجنة والرضوان في الآخرة.

وانظر أخي للأنبياء وصراعهم مع قومهم. كيف عز الله الطائعين والمؤمنين منهم، وأذل المتكبرين والعصاة من أقوامهم، وما فرعون وقارون وذكرهم عنا ببعيد، فمن ملوك ووزراء وتجار إلى أذلاء صغار مهانين بسبب العصيان والذنوب والتكبر عن الحق ورده.

فالذنوب ذلة وهوان في الدنيا، وعقاب أليم وعذاب شديد في الآخرة، قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٤].

وقال تعالى ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٤٠/ ٢١].

وقال تعالى ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٦].

فالسيئات والذنوب والمعاصي شؤم على الإنسان تحيط به وتحاصره وتقيده عن الطاعات، فلا يستطيع الانطلاق في رحابة الإيمان ولا يستطيع الإكثار من الحسنات، وتتصارع الحسنات

والسيئات عند المسلم، وأيها غلب منها غلبت على الإنسان، فالحسنة تقول أختي أختي، وكذلك السيئة، وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم «مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض...»[1].

فانظر أخي المسلم إلى الحسنات وفضلها، كيف ترفع الإنسان؟ وتخرجه من قيوده الأرضية وترفع نفسه إلى بارئها طيبة زكية، فهو مستكثر من الحسنات والخير. قلبه فيه الإيمان واليقين، ولسانه فيه الشكر والذكر والتسبيح والحمد، وجوارحه خاشعة لخالقها عاملة بأمر ربها، مسارعة لفعل الخيرات كما قال الله عن زكريا وأهل بيته ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].

فما أعظم الحسنات! ويا لفرحة المسلم بها يوم القيامة! «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط....» رواه مسلم.

(١) جامع العلوم و الحكم

فكن أخي المسلم في حساب دائم مع نفسك لحسناتك وسيئاتك؛ لأنك سترى سجلاتك يوم القيامة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٤]، وفيها كل صغيرة وكبيرة ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ١٨/٤٩]. فربما قد نسيت ما عملت ولكن الله لا ينسى ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٥٨/٦].

يا من يريد العزة أكثرْ من الحسنات ودَعِ السّيئات وإن حدث التقصير وهذا حال المسلم، فأسرع بالحسنة بعد السيئة مباشرة. ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤]، «واتبع السيئة الحسنة تمحها».

وفي الأثر «إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل ابن آدم سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال: له لا تكتب لعله يعمل حسنة، فإذا عمل حسنة ألقى واحدة بواحدة، وكتب له تسع حسنات».

فالعزة في طاعة الله وطلب رضوانه والكرامة في التقوى، والرفعة في العبادة.

وأكثر يا أخي عبارات التذلّل للواحد الأحد سبحانه وتعالى مثل قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٤] وقوله

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٤] وقوله ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ٤٧] وقوله ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٢]. فهذه العبارات القرآنية غاية في التذلّل وهذا منطق عباد الله الصالحين، وأعلم أنك كلما تذلّلت لله، وأذعنت وخضعت وأنبت وافتقرت رفعك الله وأعزك وأعلاك وأكرمك وتولاك، وهذا الدعاء من العمل والذكر الحسن.

د - الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله سبب في العزة والرفعة للأمة، وقد أعلى الله من شأن الجهاد والمجاهدين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٩] وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ [التوبة: ٩/ ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء

العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»[٢].

وحديث معاذ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». فللجهاد منزلته عظيمة في الدين الإسلامي، وهذا الدين لا يرضى لأتباعه الدنية ولا الذل والهوان، ولذلك ربى محمد صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام تربية جهادية، فتاقت أنفسهم إلى الجنة، وتعلقت قلوبهم بها، وأيقنوا أن الجنة تحت ظلال السيوف، وقضى صلى الله عليه وسلم بمعظم عمره في الجهاد، ونشر الدين الإسلامي، وكان هو القدوة للمجاهدين، وفيه تجلت معاني الشجاعة والعزة.

وقد ركز القرآن الكريم على فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين الصادقين المحتسبين، وحثهم عليه ورغبهم فيه، ومنزلة الجهاد معلومة ومقررة في مظانها، والجهاد عز ورفعة للمؤمنين، وسبيل لنشر الدين الإسلامي وإعلاء كلمة الله، وهو باقٍ إلى يوم

---

(١) صحيح مسلم ج١٢، باب الجهاد

(٢) البخاري مع الفتح ج١٣ و مسلم ج٢

القيامة، وليعلم أنه طريق إلى عز الأمة ونصرتها ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧]. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/١٢٦].

ولكن لا بد من الإلمام بفقه الموازنات وفقه الأولويات ووضع كل شيء في منزلته، فلا تؤخر منزلة الصلاة على الجهاد بل تقدم وكذلك بر الوالدين وتختلف هذه المفاهيم في التقديم والتأخير حسب الظروف والبيئة، وأكثر عمل الصحابة بعد الفرائض الجهاد في سبيل الله، وفضل الجهاد في القرآن والسنة أضعاف مضاعفة على العلم. فابن تيمية رحمه الله ترك العلم وتعليمه، وجاهد التتار عندما دخلوا الشام وهكذا.

وما أحب أن أنبه إليه هو ما نسمعه هذه الأيام عن الجهاد فقد انقسم الناس ثلاثة أصناف:

صنف يطالب بإلغاء آيات الجهاد من المناهج ويزعم أنها تثير البلبلة في صفوف الطلاب، وأن الجهاد يحرض علينا أمم الكفر فتتهمنا بالإرهاب والتطرف وتفريخ الإرهابيين على حد زعمهم، وهذا الصنف منهزم عنده هزيمة نفسية.

وصنف من الناس يصفقون ويؤيدون ويشاركون من قاموا بالتفجيرات في بلادنا فسفكوا الدماء وقتلوا الأرواح البريئة، وروعوا الآمنين، واستحلوا الحرمات، ويظنون أن هذا جهاد،

وهذا ليس بجهاد، بل هو ظلم وتعدّ وإزهاق لأرواح بريئة ونفوس زكية، وهذا الصنف ظالم متطرف غال، غير ملم بضوابط الجهاد وأسبابه ودواعيه وما يتعلق به.

وصنف ثالث وهو فريق الوسطية الذي يرى أن الجهاد فريضة قائمة، وسنة متبعة، ولكن يرون أن الجهاد له ضوابط وأسباب وله فقه خاص وله أولويات وموازنات وله دواع، وله فئة تعلنه وتأمر به، وهم أولو الأمر من الأمراء والعلماء وأصحاب الحل والعقد، وهذه هي الفئة الراشدة بإذن الله.

وللجهاد أحكام وضوابط فلتراجع في كتب أهل العلم، وما كتبت عن الجهاد، إلا أنني موقن بأن الجهاد سبب لرفع الذلة والهوان، وطريق للعزة والمنعة للإسلام والمسلمين، لأن به يعز الحق، ويرفع الظلم.

وبه تعود الأمة لسابق مجدها، وطريق عزتها، وتصبح مهيبة الجانب، موفورة الكرامة.

أما التخاذل عن الجهاد وسماع أقوال المرجفين، والاستحياء من تعلّم الجهاد وتعليمه بحجة الخوف من وصمة الإرهاب، والركون إلى الدنيا وزينتها، والأخذ بأذناب البقر، والاطمئنان إلى الزارعة والزرع، والاشتغال بمحقرات الأمور، فهو الطريق السريع للتسمين والتدجين والإصابة بمرض الوهن القاتل،

والذل المخيب وبعدها يستباح الحمى ويتسلط العلوج، ويسلب العز وتداس الكرامة.

بعض مظاهر العزة في المجتمع

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عندما يشيع في المجتمع التناصح والأمر بالمعروف والتناهي عن المنكرات يشعر الأمر والمأمور بعزة الدين ورفعته، وعندما يقلّ أو ينعدم الأمر بالمعروف والنهي بين الناس تفشو المنكرات، وتطغى الفردية على المجتمع، ويصبح معرضاً للكوارث الجماعية بسبب الأخطاء الفردية، فتصبح الأمة ضعيفة الجانب، وتكثر الفتن، ولا يستجاب الدعاء، ويحدث الانقسام في الصف، وتظهر الرذائل، وتختفي الفضائل، ويعلو صوت النشاز الباطل.

والمجتمع يسير في سفينة واحدة وهو متحرك وبسرعة فلكي لا تغرق السفينة لابد من توجيهها «فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»[١].

وعندما يكون الأمر مصحوباً برفق وبعيداً عن الأذى والتطاول ومقترناً بالرغبة في التغيير والإخلاص في النصح، ومادام الهدف منه الخوف على الفرد والجماعة، والبلوغ لرضاء الله فإن الأمر أبلغ والفائدة أعظم.

---

(١) البخاري ج٢ كتاب المظالم

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو ميزان عزة الأمة ورفعتها، ومظهر من مظاهر قوتها ونفوذها بين الأمم، لأن الأمر والنهي يصدر من النفوس العزيزة السامية، ويعتمد على المصارحة والصدق والتناصح.

٢- العفو والتسامح

من مظاهر العزة والرفعة عند الفرد والمجتمع الصفح والعفو عن الظالمين، فإذا رأيت التسامح بين الناس فاعلم أنهم أعزاء كرماء عظماء حقاً؛ لأن عظيم النفس دائماً متسع الصدر، صاحب حلم، وعذر للناس، فالعظيم لا يشعر بوخز ألم الظلم ولا يبالي بالإهانات، وسبب ذلك أن نفسه عزيزة منيعة من داخلها، قدوته في ذلك العظماء من البشر كالأنبياء، عليهم السلام، فهذا هود عليه السلام عندما سبه قومه ورموه بالسفاهة والكذب رد عليهم رداً جميلاً فقالوا له ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ، قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٦-٦٨].

وهذا دأب الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام ونبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، آذاه الكفار أشد الأذى، أدموا قدميه الشريفتين في الطائف، وجاءه ملك الجبال يستأذن في إطباق

الجبال عليهم، لكنه دعا لهم بالهداية، وقال: «لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله، اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون» وفي أحد شجوا رأسه، وسال دمه الشريف الطاهر، فقالوا له: ادع عليهم فقال: «اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون». وفي مواقف شتى قالوا له: ادع على المشركين والعنهم! فقال: إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً»[١].

وقد آذى المنافقون رسول الله أبلغ الأذى حتى أشاعوا مقالة السوء على زوجه أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، ومع ذلك عفاعن زعيم النفاق، بل واستغفر له، وصلى عليه، حتى مُنع من ذلك، وقال لقريش في فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ولم يعرف في التاريخ عفو عام عن المجرمين كهذا.

كيف لا يعفو صلى الله عليه وسلم وهو الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وهو من قال فيه الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٦٨/ ٤]. وقال فيه ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩] وقال صلى الله عليه وسلم «ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد إلا رفعه الله»[٢].

---

(١) مسلم
(٢) مسلم ج١٦

وهو من قال «ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان، ويرفع الدرجات»؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال«تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[١].

فالقلوب الكبيرة لا تؤثر فيها دوافع القسوة، ولا كنود البشر، ولا جفوة الناس، لأنهم مصلحون عظماء أعزاء، أرواحهم عالية سامية جانحة للعفو والصفح والرحمة والحنان.

ومتى رأيت التسامح والرحمة والعفو بين الناس والمجتمع فاعلم أنّ سبب ذلك عزة الإيمان ورفعته عن كل سفاسف الخلافات، ووقائع الشيطان ونزواته.

واعلم أخي الفاضل حقيقة «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» فالعفو عمن ظلمك بقول أو فعل أو سخرية أو تنقُّص أو معاداة أو محادّة من أي نوع كانت، العفو عن ذلك كله طريق إلى العزة والرفعة.

لأنك عفوت عنه في الدنيا من أجل الله وثوابه غداً في الآخرة، فالعزة سوف تجدها في قلبك لأنك ملكت نفسك عن الرد والاقتصاص، وسوف تعز يوم القيامة، يوم ترى تلك

---

(١) الطبراني (انظر تخريج خلق المسلم)

المظلمة في ميزان حسناتك بينما يراها هو في ميزان سيئاته وتعز عندما تدخل في قوله تعالى ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤] مع ذلك الفريق المؤمن وتلك الزمرة الطيبة.

٣- القناعة بما قسم الله، وعدم الركون على الناس

عندما يعز الفرد والمجتمع يرضى كلٌّ منهم بما قسمه الله له، وتحلُّ الطمأنينة والقناعة في القلوب، وترضى النفوس بما كُتب لها من خير وتصبر ولا تتضجر بما قدَّره الله عليها من شر، وقد قيل القناعة كنز لا يفنى، وقال أصدق القائلين «من يستغن يغنه الله......» [١] وقال صلى الله عليه وسلم «..... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس»[٢].

والقناعة هي الرضا بما عندك والاغتناء عما في أيدي الناس، وقد أوصي، صلى الله عليه وسلم، بعض صحابته بعدم الاتكال على الناس، وعدم سؤالهم عن الأشياء الصغيرة، لأن سؤالهم يخدم العزة، فكان أولئك الأفاضل يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله إياه. . . .

---

(١) رواه البخاري ٣/ ٢٦٥ و مسلم (١٠٥٣)

(٢) رواه الطبراني في الأوسط و إسناده حسن قال المنذري في الترغيب ١/ ٤٣١ (انظر تخريج ظلال الله)

والقنوع لا يريق ماء وجهه ولا يبذل عرضه فيما يدنسه، قال الشافعي

أمتُّ مطامعي فأَرَحْتُ نفسي ... فإنَّ النفسَ ما طمعت تَهونُ
وأحييتُ القنوعَ وكان ميتاً ... ففي إحيائهِ عِرضٌ مَصونُ
إذا طمعٌ يحل بقلب عبد ... علته مهانة وعلاه هون

وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

أفادتني القناعةُ كلَّ عزّ ... وهل عزٌّ أعزُّ من القناعة
فصيّرها لنفسك رأسَ مالٍ ... وصيِّر بعدها التَّقوى بضاعة
تحزْ ربحاً وتغنى عن بخيل ... وتنعم بالجنان بصبر ساعة

وعندما يعز الفرد والمجتمع يقنع كلاً بما قسمه الله، ويصبح غنياً في قلبه ونفسه، كما قال صلى الله عليه وسلم «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» (١).

فربى صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام رضي الله عنهم على القناعة والرضا من الدنيا بالقليل، وعلمهم أن الغني الحقيقي والنافع هو غنى القلب والنفس، لأنها إذا استغنت كفت عن المطامع، فعزت وعظمت، وأصبحت نزيهة شريفة ممدوحة أكثر من النفس الفقيرة، لأنها تورط صاحبها في الرذائل والخسائس من الأفعال فتصبح ذليلة محتقرة، غير قانعة بما عندها.

---

(١) رواه البخاري مع الفتح ١١/ ٢٧٢ و مسلم فضل القناعة و الحث عليها

والقناعة قيمة معنوية خالدة تورث الرضا بما وهبه الله، وإذا حصلت النفس القانعة من فتات الدنيا على شيء صرفتها في وجوه البر والخير، أما النفس الفقيرة الطامعة، تبقى فقيرة لأنها لا تستفيد مما تحت يديها، ولاتنتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة بل ربما كان وبالاً عليها:

إنَّ الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه ولو أنَّه عاري المناكب حافي
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً وإذا قنعت فبعض شيء كاف

وقد كان عروة بن الزبير، رضي الله عنه، إذا سمع أو رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١/٢٠]. فالقناعة مظهر من مظاهر عزة الفرد والمجتمع والطمع والجشع والبخل علامة الذلّة والتعلق بالدنيا، وقد أذلت من أطاعها ولم يقنع منها.

٤- العدل وتنفيذ الحدود

من أبرز مظاهر عزة المجتمع المسلم إشاعة العدل في جميع الأمور، لأنه ينشر الطمأنينة في النفوس، ويزيد العلاقة بين الأفراد فتبنى على التوازن والانسجام والإخاء. والعدل مبدأ رباني عظيم حفل به القرآن ودعا إليه .﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠/١٦]. وقال ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾

[الشورى: ٤٢/ ١٥]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٤/ ٥٨] والعدل نادى به الإسلام، وبه أمر الأنبياء، وهو أحد مهمات الرسل ومن أوصافهم البارزة. والعدل يضمن إعطاء كل ذي حق حقه بكل يسر وسهولة.

والعدل مرتبط بتنفيذ الحدود، وتنفيذ الحدود عز للفرد والمجتمع وحياة لهما جميعاً ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩]. وعندما يقام العدل وتنفذ الحدود يعز الفرد ويُهاب المجتمع. وعندما يضعف العدل وتنفذ الحدود على الضعيف ويفلت منها الشريف والقوي يتزعزع العدل، ويهتز الأمن، ويشيع الخوف، وقد حدث هذا في زمن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، عندما سرقت المخزومية، وتأثر أسامة بضغط بعض الصحابة عليه ليشفع فيها فما كان من الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلا أن غضب غضباً شديداً رجف منه جسمه واحمرت عيناه، وتلون وجهه الشريف ولم يكتف بهذا، بل قام خطيباً ثم قال:

«إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

(١) البخاري مع الفتح ٦/ ٥٩٣ و مسلم ٨/ ٢٦٧

كلمات تأكيد لإبراز خطورة الأمر، وأنه صلى الله عليه وسلم سينفذ الحدود ولو على أعز الناس إليه وأقربهم منه مودة، وهي فاطمة رضي الله عنها، وهذا التوكيد يبين قمة العدل وأهميته وعظم أمره، فلا مداهنة في الحدود ولا مواربة، والجميع تحت أمر الله، وفيهم ينفذ حكم الله متى ما حادوا عن الطريق لا وجاهات ولا شفاعات في الحدود بعد بلوغها الإمام.

فالعدل وتنفيذ الحدود يعز المؤمن، فلا يجعله مستباحاً لكل سارق وقاتل وطامع، وبهذا يعز جانب المظلوم، ويثأر من الظالم إلا إذا عفا عفواً كريماً وسمح بخاطر طيب فهذا يزيده عزاً إلى عز ورفعة إلى رفعة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٩-٤٠].

فإشاعة العدل وإقامة الشرع وتنفيذ الحدود على الظالمين والمعتدين تعزُّ الدين وأهله، وتؤدب المجترئين، وتكسر شوكة الظالمين، وترهب المجرمين، وتوقف زحف الطامعين.

ومتى رأيت العدلَ والشرعَ قائماً بين الناس وكلهم تحت أمر الله سواء، فاعلم أنّ المجتمع عزيز، وأن هذا مظهر من مظاهر عزة الفرد والجماعة.

واعلم أخي الفاضل أن هنالك مظاهر عديدة للعزة في المجتمع

غير ما ذكرت، مثل نصرة الحق وأهله أينما وحيثما كانوا، وقول كلمة الحق كذلك مظهر من مظاهر العزة عند الفرد والمجتمع، وعدم الخوف والرهبة من قولها، وكذلك إبراز الانتماء للدين والفخر بذلك والدعوة إليه، وإعلاء مبدأ الولاء لأولياء الله ودينه، والبراء من أعداء الله، هو مظهر من مظاهر العزة، ونصرة المظلومين من المسلمين والغضب لله عندما تنتهك محارمه، وإبراز جوانب الإسلام كلها، هو مظهر من مظاهر عز الفرد والجماعة، ولم أستطع الكتابة عن هذه الجوانب لظروف الحال والمقال، ولأنني ركزت على المظاهر العامة التي تخص الجماعة أكثر من الفرد، مع أنهما كلٌ لا يتجزأ، والفرد جزء من الجماعة، وإذا سقط الكل لا يسقط الجزء.

آثار العزة على النفس

للعزة آثار على النفس البشرية في الدنيا قبل الآخرة، وتُرى هذه الآثار على المعتز بربه وخالقه، والمعتنق لدينه، والعامل بشريعة ربه سوف أذكر منها جانباً.

١- الثبات على الحق وقت المحن والشدائد.

صاحب العزة لا تهزه الأحداث، ولا تحركه النوائب، لأنه شاعر بمعية ربه له، ومعتز بربه، وواثق بنصره له، فلا تتغير أفكاره تبعاً للأحداث، ولا تتغير نظرته الشرعية للنوائب

والمصائب، فهذا نبي الله إبراهيم، عليه السلام، يُلقى في النار فلا يتغير موقفه من أصنام القوم، وبطلان عبادتهم لها، فلم تزده تلك المحنة إلا عزة بربه وثقة بدينه، وهذا أفضل الخلق محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، لم يزده ضغط الكفار عليه في مكة إلا ثباتاً وقوة وعزة بدينه، عندما عرضوا عليه المال والجاه والرئاسة، فقال قولته المشهورة «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»[١]. فثبت وقت المحن، صلى الله عليه وسلم. وقد حفل التاريخ الإسلامي المشرق للصحابة، رضي الله عنهم، بكثير من صور الاعتزاز بالله وبالدين العظيم، منهم أبو بكر رضي الله عنه عندما ثبت ووقف معتزاً بدينه وحارب المرتدين مانعي الزكاة وعّباد الدرهم والدينار، وقال قولته المشهورة: «والله لأحاربن من فرق بين الصلاة والزكاة». وأنفذ جيش أسامة لأنه واثق بربه معتز بدينه، مصدق لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذا عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ثبت على الحق وقت محنة عظيمة مع ملك الروم فصُلب ورمي بالسهام يميناً وشمالاً فلم يجزع، وألقي على مرأىً منه بأسير في قدر يغلي بالماء،

(١) السيرة النبوية ابن هشام ١/٢٦٦

وعُرض عليه التنصر فلم يرض، لأنه معتز بدينه واثق بربه، فنصره الله وأُخلي سبيله، وثبت على الحق وقت الشدة، وما ذلك إلا لأنه يشعر بقلبه بالعزة وبالاستعلاء على كل ما دون الله، فما أقسى ما سيتعرض له المؤمن؟ التعذيب، الموت، كل ذلك هين في سبيل الدين، ولا يسلب الحياة إلا واهبها.

وهذا ربعي بن عامر دخل على رستم وخرق بُسطه، وقال بملء فيه قولته التي تنضح عزة ورفعة واستعلاء بهذا الدين، وقد سبقت قصته.

ولما أسر خبيب بن عدي رضي الله عنه قدمته قريش ليقتلوه، فقالوا له: ننشدك الله: أتحبُّ أنك جالس في أهلك وأنَّ محمداً مكانك؟ فقال: قولته المشهورة التي تنضح عزةً ورفعة وحباً لمحمد صلى الله عليه وسلم «والله ما أحب أن محمداً يشاك بشوكة في مكانه تؤذيه، وإني جالس في أهلي. وأنشد قائلاً:

فلستُ أبالي حينَ أُقتلُ مسلماً

على أيِّ جنبٍ كانَ في الله مصرعي

وذلك في ذاتِ الإلهِ وإن يشا

يبارِكْ على أَوْصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

فلقد مات خُبيب شهيداً، ومات كثيرون غيره، فهو الموت نفسه، لكن العزّ فيمن ثبت على مبدئه وبقي معتزاً بربه ودينه

ورسوله. فخبيب يقول: لقد قتلت في ذات الإله ومن أجل هذا الدين، فشابه رضي الله عنه سلفه الصالح أصحاب الأخدود الذين ماتوا من أجل عقيدتهم ودينهم، ولكن أصحاب الأخدود رُفع ذكرهم وكذلك خبيب بقى ذكره ناصعاً مشهوراً إلى يوم القيامة فرضي الله عن تلك الروح الطيبة.

هذه بعض الأمثلة وتاريخنا ناصع ملىء بكثير من الأمثلة التي ضحَّت وثبتت وقت المحن والشدائد.

٢- علو الهمة

المؤمن عزيز النفس، وهبه الله هذه العزة بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] وغرس فيه الإسلام السمو والرفعة والعلو والاستعلاء، فهو عالي الهمة بعيد الهدف، يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره سفاسفها.

فالمؤمن همته مقرونة بالعمل الجاد المخلص لله في طاعته، صلاة في الجماعة، وصيام، وحج، ودعاء، وجهاد، لا يدنّس نفسه بارتكاب النواهي، ولا ينزلها حضيض السفاسف، يسابق للخيرات، وينافس في الصالحات لنيل الدرجات.

والمؤمن صاحب العزة يجوب الأرض بحثاً عن الرزق الحلال، ويمشي في مناكبها، ليعف نفسه عن مذلة السؤال وهوان

الحاجة للناس. صاحب العزة مترفع عن الدنايا حصَّن نفسه بالعلم والحكمة، متحرراً من رق الأهواء، يتبع الحق في القول والعمل.

صاحب العزة عالي الهمة نظرته للمجد الخالد وهو مجد الآخرة، ولذلك فهو يعمل لها ومن أجلها، متعظ بقول الله لقارون صاحب الجاه والمال، عندما قال له سبحانه ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧]، وقوله تعالى ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ٨٧/١٧] فهو عالي الهمة، لأنه يعرف أن الدنيا دار الغرور، وموطن المرور. أما الآخرة ففيها الخيرية والبقاء الدائم، ومع ذلك هو لا ينسى نصيبه من الدنيا ولكنه مؤمن بحقارة متاعها وزوال لذتها.

فصاحب العزة لا يدنس عزته وإيمانه بالدناءات ولا يريق ماء وجهه من أجل الحصول على منصب أو جاه أو مال أو متاع زائل، ولا تغريه الشهوات، ولا تعصف به الشبهات، فهو محصن ضد الأولى بالإيمان واليقين، وضد الثانية بالعلم والحكمة.

صاحب الهمة العالية دائماً ينظر للملك الذي وصفه الله بالكبير في قوله ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠﴾

[الإنسان: ٧٦/ ٢٠] ولقوله صلى الله عليه وسلم «الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها...» [(١)].

والمؤمن عالي الهمة قوي الإيمان ملحاح بالدعاء وملازمه، كثير الحياء، ملازم لكتاب الله بتدبر وتفكر، رجّاع لسنة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، قليل التنعم، لا يحب الترف، متوازن في حياته ومعاشه وتفكيره، يحب الحوار ويقبل النقد ويرحب بالنصيحة ويعمل بها، حسن النية، سليم الصدر، سخي اليدين، عفو متسامح، متواضع، ينصف الآخرين من نفسه إذا حصل منه هفوة أو زلة، الموت وموعده على باله دائماً، فهو قصير الأمل، متذكر للآخرة عامل لها، صابر ومصابر جاد ومثابر، معتدل في فكره وحكمه وتأثره، لا تهزه العواطف ولا تعصف به الأحداث، كثير الإقبال على ما ينفعه معرض عما يضر دينه ودنياه. همته رضاء الله وهدفه الجنة وغايته السلامة من الذنوب.

٣- الطمأنينة

من آثار العزة على النفس المؤمنة، طمأنينة وسكينة في القلب، وقد امتن الله على عباده الصالحين من الصحابة الكرام بنزول الطمأنينة عليهم قال تعالى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/

(١) البخاري ٧/ ١٧٠

١٠]، فنزل عليهم الملائكة، وكان هذا في بدر، وفي حنين أنزل السكينة عليهم فقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٩/٢٦]. وفي فتح مكة أنزل السكينة عليهم فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤٨/٤].

وهكذا فالطمأنينة للنفوس المؤمنة العزيزة تنعم بها، ولا تشعر بالاضطراب والقلق، لأنهما هم يشتت الذهن، ويقصّر العمر، ويذهب سعادة الحياة، ومن دون الطمأنينة وسكون النفس تصبح الحياة جحيماً والقصر سجناً والنعم نقماً فقد قال بعض الحكماء: خذ مني نعم الحياة الدنيا، وأعطني يا رب قلباً غير مضطرب. وقال بعضهم: لم أجد في الحياة نعمة أغلى ولا أفضل من سكينة النفس، وطمأنينة القلب.

والطمأنينة هي مصدر السعادة، وقد علمنا الله سبحانه وتعالى على مصدر الطمأنينة فقال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/٢٨] وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ٢٠/١٢٤].

فالسكينة في الإيمان بالله والإكثار من ذكره وشكره وطاعته، وإن الإنسان ليشاهد المحرومين من الصلاة في الجماعة وقليلي الذكر لله هم أكثر الناس اضطراباً وقلقاً وشعوراً بالضياع، مع أنهم يتلذذون أنفسهم بلذائذ الدنيا، ولكنهم لا يشعرون بالسعادة والسكينة.

والسكينة مصدرها علوي، وتتنزل على عباد الله متى ما عملوا بأمره، فهذا نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، يطمئن صاحبه في الغار عندما شعر بالحزن والقلق على صاحبه ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٩/ ٤٠].

وتنزل السكينة على موسى عليه السلام عندما قال له قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦١]، ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦٢].

وتنزل الطمأنينة على أم موسى عندما ألقت فلذة كبدها في النهر، وخافت عليه خطر النهر، وخطر فرعون، وحزن قلبها على فراقه، فقال لها الله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧].

وانظر يا رعاك الله لطمأنينة سحرة فرعون بعد أن نزل الإيمان وحل في قلوبهم ماذا قالوا: بعد تهديد فرعون لهم قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٢٠/ ٧٢]. غير مبالين بما سيفعل بهم، إنها السكينة في القلوب.

ومتى رأيت السكينة والطمأنينة في قلب المؤمن وعلى فلتات لسانه فأعلم أنه عزيز النفس.

٤- السعادة في الحياة

السعادة هي جنة الأحلام المنشودة لكل إنسان، وهي مبتغى البشر أفراداً وجماعات، وكل ما يعمله الإنسان من عمل في هذه الحياة يهدف أن تحقق له نتيجة هذا العمل السعادة.

ولكن الناس ضلَّ بعضهم في معرفة مكان السعادة وطرق الوصول إليها! فحسبوا أنها الغنى، ورغد العيش، ورفاهية الحياة، ووجدوا أن هنالك علاقة طردية بين تحقق مطالب الحياة وبين الشعور بالتعاسة وارتفاع الاضطراب والتوتر.

كما يحدث في بعض الدول الغنية، التي يمتاز فيها الفرد برفاهية العيش ورغد الحياة، ولكن تزداد نسبة الانتحار للتخلص من الآلام النفسية التي يعانونها.

ويقول أحد المفكرين واصفاً الحياة في نيويورك: «إن الحياة في نيويورك غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء....!».

فالسعادة ليست في كثرة المال؛ لأنه ينقلب على صاحبه شقاء وهماً، إلا من فعل به هكذا وهكذا عن يمينه ويساره في وجوه الخير والبر، وقد سمعنا من تمنى أولاده موته ليرثوه وينعموا بالمال الذي جمعه والدهم لهم.

وليست السعادة في القصور وسعة الدوز، لأننا رأينا من ترك

قصره وداره الفاره، ونصب الخيام في الصحراء، وكانت أمتع له من تلك القصور.

وليست السعادة في كثرة الأولاد؛ لأننا رأينا من كان جزاؤه من أولاده العقوق والكفران ونكران الجميل، وصح ما قاله أمية بن أبي الصلت قديماً:

غَذَوْتُكَ مولوداً وعُلْتك يافعاً تُعلّ بما أُسدي إليك وتَنْهَلُ
إذا ليلةٌ نابتْك بالشَّجو لم أَبتْ لبلواك إلا ساهراً أَتَمَلْمَلُ
فلمَّا بلغْتَ السِّنَّ والغايةَ التي إليها مدَى ما كنْتُ فيكَ أُؤَمّلُ
جعلْتَ جزائي غلظةً وفظاظةً كأنَّك أنتَ المنعمُ المتفضِّلُ

إذن السعادة ليست في كثرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا مكانة المنصب، ولا كثرة الولد، ولا الدور والقصور، ولا الشهادات ولا المنافع.

والسعادة لا تُشترى بالمال، ولا تُقاس بالكم، ولا يملكها البشر، ولا ينتزعونها.

السعادة الحقة طريقها واحد سهل، وخط مستقيم، وهو أسرع الطرق للوصول إلى الهدف. إنه الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما فيما أمرا والانتهاء عما نهيا، السعادة في الذكر والشكر والعبادة، السعادة تفجرتْ ينابيعها في قلوب المؤمنين فحولت العذاب راحةٍ كما فُعل ببلال رضي الله عنه وآل ياسر.

حولت السعادة المرارة حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاء، والألم شفاء، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وآلانت شظف العيش إلى رغد.

كما قال أحد الصالحين: والله إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

وقال آخر: إنه لتمر عليّ ساعات أقول فيها لو أن أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا في عيش طيب.

ويقول ابن تيميه: «ماذا يفعل أعدائي بي، أنا بستاني وجنتي في صدري، سجني خلوة، وقتلي شهادة، وطردي عن بلدي سياحة».

إنها السعادة الحقيقية إنه الإيمان الذي لا تهزه العواصف، ولا تحركه الأحداث والنكبات.

إن السعداء من البشر هم أهل الرضا والسرور وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٠]. إنه الصبر والذكر مفتاح السعادة. وقال له ممتناً عليه بقوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»[١].

فالسعادة في الإيمان بالله رباً، والسعادة في طاعة محمد نبياً، والسعادة في الاعتزاز بالإسلام ديناً. والسعادة في الشعور بالعزة بهذا الدين والاستعلاء بتعاليمه واتباع أوامره.

والسعادة في حياة الإنسان إشارة إلى عزته ورفعته في الدنيا والآخرة، ولكنها السعادة الحقيقية وليست الموهومة. وإنني أكتفي بهذه الآثار للعزة مع العلم أنّ هنالك آثاراً أخرى للعزة، مثل التضحية بالغالي في سبيل الدين، ونصرته من مظاهر العزة، وكذلك وضوح الهدف والقوة في حياة الإنسان وغيرها كثير، كلها مظاهر للعزة والاستعلاء في هذه الحياة الدنيا.



(١) رواه مسلم

الفصل الرابع

١- أسباب فقد العزة وفشو الذُّل

أ- حب الدنيا وزخرفها

ب - موالاة الكفار

الفصل الرابع

أسباب فقد العزة

المؤمن عزيز؛ لأنه نال عزته من عزة الله، والعزة ميراث له وله وحده، لكننا نرى اليوم ونلحظ أن المؤمنين في ذلّة فيا ترى ما الأسباب التي أفقدتنا عزتنا، ونحن ندين بالإسلام، ويطلق علينا مسلمون؟!

إن هذا سؤال جوابه طويل، لأنه لا بد من تشخيص الأمراض في أمتنا، وهذا يتطلب بحثاً مستقلاً وتفصيلاً، مع ظهور أسباب كثيرة أدت إلى فقد العزة وفشو الذلة والمهانة، وهي ليست بخافية ومنها على سبيل الإجمال، البعد عن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ومعرفة دلالاتها ونواقضها، وإن كنا نتلفظ بها كل يوم وفي كل صلاة ودبرها، ومنها البعد عن المنهج الصحيح في المعاملة وفي كثير من جوانب الحياة، ومنها ضعف الإيمان وخرقه بخوارق خطيرة تقدح فيه، وتخرج من دائرته كثيراً من الناس، الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾

[الحجرات: ٤٩/١٤] ومنها ضعف الانتماء للدين، ومنها المجاملة على حساب الدين والمداهنة فيه، وعدم التناصح بصدق، وتعطيل بعض جوانب الجهاد، وضعف التقوى، وقلة الطاعة والارتباط بالخالق سبحانه وتعالى، والاتكال على المخلوقين في الأمور، وعدم الأخذ بجد بجوانب العلم التجريبي وحب الدنيا وكراهية الموت وموالاة الكفار والمشركين.

وسوف أتعرض بالبحث للعاملين الآخرين فقط، وأدع الجوانب الأخرى؛ لأنها الأهم في نظري.

١- حب الدنيا

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٣]. فهذه الآية وغيرها كثير تبين استحباب الناس للدنيا، وتفضيلها على الآخرة، والالتصاق والإعجاب بالشهوات واللذائذ، وهذه مرغوبة مفضلة، ولكنها تبعد بالإنسان المؤمن كثيراً عن العزة ومعانيها.

والناس فريقان منهم من يحب الدنيا، ومنهم من يحب الآخرة والعمل لها، وقد نزل في قوله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢/٣]. في

المجاهدين في أحد، في أفضل الأعمال بعد أركان الإسلام، بل ذروة سنام الإسلام وهو الجهاد. فالمؤمنون الصادقون قال الله فيهم: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٨].

وقد حذرنا ربنا سبحانه وتعالى من الدنيا في كثير من آيات القرآن، ونبهنا ألاّ نغتر بها، ونركن إليها. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٢].

وحذر سبحانه وتعالى من الاقتراب ممن اغتر بالدنيا واتخذ دينه لعباً ولهواً، قال تعالى ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٦/ ٧٠]. وقال تعالى ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٦].

وقرر سبحانه أن هناك أقواماً استحبوا الحياة الدنيا وفضلوها على الآخرة وكانت همهم الوحيد هي وما فيها. قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٧].

وآيات كثيرة جداً بينت الفريقين وأهدافهما في الحياة. فحب الدنيا والعيش من أجلها ولأهدافها فقط، تفقد العزة وتغرس الذل والهوان في النفوس. قال صلى الله عليه وسلم «يوشك الأمم أن تداعى عليكم...... وليقذفن الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟. قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

كلمتان هما سبب المرض من مشخص حكيم موحًى إليه من السماء، توضح السبب في نزع المهابة والعزة والرفعة من صدور أعدائنا، «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن....»[2].

ففقدُنا العزة والمهابة وعدمُ الخوفِ والخشيةِ منا سببه الرئيس هذان العاملان؛ حب الدنيا، وكراهية الموت مما جعل أراذل القوم وسقط المتاع من البشر يحتقرون أمتنا ومجدنا وديننا.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا أصابنا الوهن؟ وهو حب الدنيا وكراهية الموت .

لسببين أصابنا رئيسين هما :

---

(١) رواه أبو داود ٤/ ٤٨٤ و صححه الألباني في المشكاة ٣/ ١٤٧٥

(٢) إكمال الحديث السابق

١- الخوف على الأرزاق.

٢- الخوف على الآجال.

١- الخوف على الأرزاق

ولننظر ماذا يقول الغزالي في هذا الموضوع «إنَّ الناس يذلّون أنفسهم ويقبلون الدنية في دينهم ودنياهم لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم، والغريب أن الله قد قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق، فليس لأحد إليهما سبيل، فالناس يستذلهم الحرص على الحياة والخوف على القوت، والناس من خوف الذل في ذل ومن خوف الفقر في فقر»[1].

فالسبب الأول للوهن: هو الخوف على الرزق، وهذا جوابه عندنا في القرآن فالأرزاق بيد الله، وقد كتب لكل رزقه، وهو في بطن أمه، فالله قد قدّر في الأرض أقواتها، وجعل الأرزاق بيده سبحانه وتعالى، ولم يجعل لأحد سلطاناً على الرزق وهؤلاء الناس يتبجحون ويتسلطون وما هم إلا أسباب!.

وما الرزق حقيقة إلا في السماء. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨].

وقال تعالى ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ

(١) خلق المسلم ٢٠٠

﴿وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٢-٢٣].

وقال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ١١/ ٦].

وقال تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٠].

فالله سبحانه وتعالى جعل الرزق ومفاتحه في السماء بيده، ليعيش المؤمن آمناً على رزقه، رافعاً يديه للسماء، طالباً الرزق من ربه، وهذا يطمئن الإنسان، ويبعد عنه القلق والخوف على رزقه، وإذا أيقن المؤمن بهذا لم يستذله شيء في الدنيا، ولم يستعبده إنسان مثله، وقد ولدته أمه حراً أبياً، وجعله الإسلام عزيزاً منيعاً قوياً، محافظاً على كرامته معترفاً بالمنة لله وحده فقط.

ولو فطن الإنسان وتفكر قليلاً ونظر وتدبّر لرأى الطير تغدو صباحاً جائعة (خماصاً) وتعود مساءً ممتلئة البطون (بطاناً) ولرأى السباع في الصحاري والجبال والأسماك في البحار والديدان في الصخور والجحور، و(البكتريا) في الهواء وفي الماء وفي بطن الإنسان يصلها رزقها وغذاؤها.

وأين نحن من أولئك القوم الأعزاء الذين يذهبون إلى ميدان

الشرف والجهاد راغبين في الموت، ومن ورائهم أطفال وحفدة وأفراخ صغار لم يخافوا عليهم، وعلى رزقهم، لأنهم موقنون أنّ ربهم رازقهم، وهو أبرّ بهم من آبائهم، حتى تقول الزوجة لزوجها وهو ذاهب في سبيل إعلاء كلمة الله «إن زوجي عرفته أكالاً وما عرفته رزاقاً، ولئن ذهب الأكال لقد بقي الرزاق»[1].

الله أكبر يا سلفنا الصالح!.

أنا إن عشتُ لستُ أعدمُ قوتاً ... وإذا متُّ لستُ أعدمُ قبرا
همّتي همّةُ الملوكِ ونفسي ... نفسُ حرٍّ ترى المذلّة كفرا
وإذا ما قَنِعْتُ بالقوتِ عُمري ... فلماذا أخافُ زيداً وعمرا؟

ويقول آخر:

أرى الدنيا لمن هي في يَدَيْه ... هموماً كلما كثُرَتْ لديهِ
تهينُ المكرمين لها بِصغرٍ ... وتُكرمُ كلَّ من هانت عليه
إذا استغْنَيْت عن شيءٍ فدَعْه ... وخُذْ ما أنتَ محتاجٌ إليه

أين من يسخّر الدنيا لنفسه ولا يسخر نفسه للدنيا؟ أين من لا يتخذ الدنيا رباً فتتخذه الدنيا عبداً؟.

فهذا السبب الأول في الوهن وهو الخوف على الرزق.

---

(١) الإيمان و الحياة ١٦٠

٢- الخوف من الموت

ذكر الموت يهز القلوب الضعيفة ويخيفها، لا شك أن الموت حق، وهو قادم لا محالة لكن لماذا كل هذا الخوف، وكل هذا الجزع على الدنيا، وهي حقيرة، «لو تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»[1]. ما نخاف من الموت إلا لأننا مقصرون، وإلا فما في الدنيا شيء يندم عليه والله إلا الذكر وطاعة الرحمن، وما سواهما باطل زائل، فلماذا نحن نتهيب الموت؟

أيا ربِّ لا تجعل وفاتي إن أَتَتْ
على شَرْجَعٍ[2] يعلو بحسْن المَطَافِ
ولكنَّ شهيداً ثاوياً في عصابةٍ
يصابونَ في فجٍّ من الأرضِ خائِف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذَى
وصاروا إلى موعودِ ما في الصَّحائف

قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٧].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٣٢٠ و قال صحيح غريب

(٢) الشّرجع: السرير يحمل عليه الميت.

وقال تعالى ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/١٦].

وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٦٢/٨].

قال الغزالي: «إن تهيب الموت وتحمل العار طلباً للبقاء في الدنيا على أية صورة فذلك حمق، فإن الفرار لا يطيل أجلاً والإقدام لا ينقص عمراً، إن الموت يصيب العزيز وله أجره، ويصيب الذليل وعليه وزره، فكن عزيزاً ما دام لن يفلت من محتوم الموت إنسان»[1].

فالمؤمن لا يخاف من الموت ولا يجزع من مرارته، بل هو لقاء بالحبيب بعد طول غياب، والموت خطب قد عظم حتى هان، وخشن حتى لان، والموت طريق للخلود في النعيم للمؤمن، روي عن أحد الصالحين حين أحس بدنو أجله، قام فاغتسل وتطيب وصلّى ركعتين، وكتب عند رأسه في ورقة:

قل لإخوانٍ رأَوْني ميتاً فبكوني ورَثَوْني حزنا
أتظنُّون بأني ميتكم ليس هذا الميت والله أنا
أنا في الصّور وهذا جسدي كان ثوبي وقميصي زمنا

---

(١) خلق المسلم ٢٠٢

أنا عصفورٌ وهذا قَفَصي طرتُ عنه وبقي مرتهنا
أحمدُ الله الذي خلّصني وبنى لي في المعالي مسكنا [١]

وكيف يخاف المؤمن من الموت وهم قادم على أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وأرحم بالمؤمنين من أمهاتهم؟

قيل لإعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير ولا أعرفه إلا من عنده؟

فالخوف من الموت سبب للوهن بل هو الوهن، وهذا ما أفقد العزة وغرس الذلة والمهانة.

أين نحن ممن يقترعون سباقاً إلى الجهاد؟ فتخرج القرعة للابن، فيقول الأب، آثرني يا بُني، أنا أبوك! فيقول الابن: إنها الجنة يا أبت، ولو كان شيء غيرها لآثرتك به[٢].

ذَريْني أنَلْ ما لا ينالُ من العلا
فصَعْبُ العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصةً
ولا بد دون الشهدِ من إبر النَّحلِ

(١) الإيمان و الحياة ١٦٢
(٢) من المرجع السابق ٢٦٣

أين نحن من سحرة فرعون حين آمنوا وعرفوا الحق، فاستهانوا بالدنيا ولم يجزعوا من الموت والتقطيع للأيدي والأرجل والصلب على جذوع النخل فقالوا بقوة وعزة ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٢٠/٧٢].

«إن الوهن الحقيقي أن يخلد المرء إلى دنياه الخاصة فيعيش عبداً لها مطواعاً، أسيراً لقيودها الثقيلة، تحركه الشهوات كالخاتم، وتسيره الرغائب كالثور في الساقية، فاقد الهدف معصوب العينين، حب الدنيا هو الذي يجعل الإنسان عبداً ضعيفاً رخو العود أمام امرأة يعشقها، أو شهوة يطمع في نيلها، وكراهية الموت هي التي تجعل الأفراد والجماعات يؤثرون حياة ذليلة على موت كريم، يؤثرون حياة يموتون فيها كل يوم موتات، على موت يحيون بعده حياة الخلود»[1].

وَمَنْ لم يمُتْ تحتَ السُّيوفِ مكرَّماً
يعش ويقاسِ الذُّلَّ غيرَ مكرَّم

إن العزة والرفعة لا تنال إلا بالتضحية بالنفس والمال لتحقيق المبادئ السامية في الحياة، وإقامة العدل، ونشر الحق، إن الذي يخاف من الموت لا يرى عزاً، ولا يشعر برفعة، ولا يصنع شيئاً ذا بال.

---

(١) المرجع السابق

حبُّ السَّلامةِ يُثني همَّ صاحبِهِ
عن المعالي ويُغري المرءَ بالكَسَلِ
فإن جنحْتَ إليهِ فاتَّخذْ نفقَاً
في الأرضِ أو سلماً في الجوِّ فاعتزل

ولننظر للسلف الصالح وهديهم في الموت وعدم الخوف منه، فهم يحبون الموت لأنه يعجل بهم إلى لقاء ربهم «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه....»[1].

والرسول محمد صلى الله عليه وسلم عندما خيّر بين لقاء ربه والدنيا اختار الرفيق الأعلى، وعلي رضي الله عنه عندما ضربه ابن ملجم قال: «فزتُ وربِّ الكعبة». وبلال حينما حضرته الوفاة، قالت زوجته: واكرباه، فقال: «بل واطرباه! غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه».

وخبيب عندما صُلب كان يترنم:

ولستُ أبلي حين أُقتل مسلماً على
أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعي

وخالد بن الوليد يرسل للروم والفرس ويقول لهم: الإسلام وإلا رميتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

---

(١) مسلم ٨/ ٦٥، الترمزي ١٠٦٦، احمد ٥/٣١٦، النسائي ٣/ ١٠ (انظر تخريج ظلال المحبة)

وصدق من قال:

عبادُ ليلٍ إذا جنَّ الظّلامُ بهم
كم عابدٍ دمعه في الخدِّ مجراهُ

وأسدُ غابٍ إذا نادى الجهادُ بهم
هبُّوا إلى الموت يَسْتجدونَ رؤياهُ

يا رَبِّ فابعثْ لنا من مثلِهِمْ نفراً
يُشيدونَ لنا مجداً أضَعْنَاهُ

أخي المؤمن العزة في طاعة الله، والتضحية بالنفس وكل غال في سبيل المبادئ العليا، والذِّلة والهوان في الركون إلى الدنيا ونسيان الآخرة، والخوف من الموت.

فيا من يريد العزة والرفعة في الدنيا والآخرة اعلم أن الدنيا ظلٌّ زائل، وخيال حائل، واعلم أن الزهد فيها سبب لمحبة الله، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم «ازهد في الدنيا يحبُّك الله...»[١]. وليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك، كحال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي كانت الكنوز ومفاتحها في يده، لكنه زهد فيها.

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) و الحاكم (٣١٣/٤) (انظر تخريج ظلال المحبة)

وقد قال الله لقارون صاحب الكنوز ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧].

فالأصل هو الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، كأنه غافل عن الدنيا فهو يذكره بها وبنصيبه منها.

وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول: «مالي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»[١].

وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً وما بقي منها إلا القليل من القليل....»[٢].

ولا تعدل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة شيئاً، إلا كما قال صلى الله عليه وسلم «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[٣].

فيا من يريد العزة! أبعد الوهن عنك، وارمه جانباً، ولا تلفت إليه، لا تركن إلى الدنيا، ولا تخف من الموت.

---

(١) أحمد ٣٠١/١، و الحاكم (٣٠٩/٤) و صححه ووافقه الذهبي
(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٠) بإسناد حسن (انظر تخريج ظلال المحبة)
(٣) مسلم (٨/ ١٥٦) و الترمزي (٢٣٢٣)، أحمد (٢٢٩/٤) (المرجع السابق)

لأن الله سبحانه وتعالى يثبت الصالحين عند الموت، فلا يختمون دنياهم إلا بخير كلام، وبشهادة الحق، وهي قول لا إله إلا الله، أو عمل صالح، فأبو بكر رضي الله عنه يتلو عند موته قوله تعالى ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ٥٠/١٩]. ومعاذ رضي الله عنه قال عند موته «مرحباً بالموت، مرحباً زائراً، مغيب حبيب جاء على فاقة، اللهم إني قد كنت أخافك فاليوم أنا أرجوك...».

وعمر بن عبد العزيز رحمه الله عند وفاته قال: «أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله...... وتلا قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٢٨/٨٣].

وأنس بن مالك يقول «لقنوني لا إله إلا الله فلم يزل يرددها حتى قبض».

ومالك رحمه الله عندما حضرته الوفاة تشهّد ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٣٠/٤]. وكثير وكثير من قصص الثبات عند الموت فلماذا الحزن؟ .

السبب الثاني في فقد العزة وفشو الذلة والمهانة موالاة الكفار عامة واليهود والنصارى خاصة

إن موالاة الكفار عامة سبب في سلب العزة من المسلمين، لأننا بموالاتنا لهم طلبنا التعزّز منهم، وتناسينا أن العزة لله جميعاً.

ولماذا خصصت اليهود والنصارى بالموالاة؟

لسببين رئيسين هما:

١- لأن القرآن الكريم حذرنا منهم في آيات كثيرة جداً، فعلى سبيل المثال، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٠].

وآيات كثيرة جاء فيها أهل الكتاب والذين أوتوا الكتاب، وهم المقصودون بأهل الكتاب، مثل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٠].

ولأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حذرنا من اليهود

والنصارى وموالاتهم واتباعهم لأنهم أهل غدر وخيانة، وعدم احترام للمواثيق والعهود، قال صلى الله عليه وسلم «لتتبعنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه». قالوا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[١].

وهذا حديث يوضح أنّ أمته صلى الله عليه وسلم لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله، ولهذا قال سفيان ابن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى[٢].

ولذلك فالافتتان بهم كبير، والتأثر بفعلهم وموالاتهم خطره عظيم، خاصة في هذا الزمان الذي غلبوا فيه المسلمين بتقدُّمهم في مجال العلوم التجريبية والتكنولوجية فاتخذ بعض المسلمين هؤلاء الكفار أولياء من دون المؤمنين، ووقعوا في المحذور الكبير والخطر العظيم، بل نقضوا الإسلام؛ لأن من نواقض الإسلام العشرة مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١].

---

(١) أخرجاه و السياق المسلم (انظر تخريج فتح المجيد/ ٢٩٨)

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد

قال السعدي «ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين فاتخذوهم أولياء يتعززون بهم ويستنصرون وهنا فيه ترهيب عظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين وأن ذلك من صفات المنافقين والإيمان يقتضي بغض الكافرين وعداوتهم»[١].

قال صاحب الولاء والبراء «من الأمور التي يجب أن نتدبرها بروية من نواقض الإسلام، مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١]. وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها سواد الناس اليوم، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتّسمون بأسماء إسلامية، ولقد صرنا في عصر يستحي أن يقال للكافر: يا كافر! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، ينظرون إليهم نظرة انبهار ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم، حتى لودخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلوه، مظاهرة أخذت صوراً شتى»[٢].

٢- أما السبب الثاني فهو ما أصاب أمتنا من ذل وهوان

---

(١) تفسير بن سعدي ١/ ٤٧٣

(٢) الولاء و البراء ٨٤

وقتل وتشريد ومؤامرة واحتلال للمقدسات في فلسطين، وتهديد للشعوب الإسلامية واستنزاف لثرواتها وخيراتها، بل ولدينها ووصفه بالإرهاب ووصف معتنقيه بالإرهابيين، وتشنيع لرسولنا وتكذيب، وكثير من الويلات والمصائب إلا من وراء اليهود والنصارى عليهم لَعَنَات الله المتتابعة، ولن أتعرض للتفصيل في هذا السبب، وسأكتفي بذكر بعض صور الموالاة

٢- صور لموالاة الكفار

قبل ذكر بعض صور الموالاة لا بد من ذكر أن «هذه الصور تتفاوت من كون فاعلها خارجاً من الملّة كمن يحب الكفار لأجل كفرهم إلى كبيرة من الكبائر كتعظيمهم والثناء عليهم، ذلك أن مسمّى الموالاة يقع على شُعَبٍ متفاوتة منها ما يوجب الردة ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات»[١].

قال «وخطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين أعظم من خطر من يكفر في نفسه فقط» [٢].

ومن صور الموالاة للكفار:

١- التولي العام واتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء قال تعالى

---

(١) الدرر السنية (عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي) انظر الولاء و البراء ٢٣٥

(٢) المرجع السابق

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨].

قال ابن جرير: من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم، ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء، أي قد برئ من الله وبرئ الله منه.

٢- مودتهم ومحبتهم:

قال تعالى ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢].

٣- الركون إليهم.

قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١/ ١١٣].

قال القرطبي: الركون حقيقتة: الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به.

٤- مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين.

قال تعالى ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٩].

والمداهنة والمجاملة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من المسلمين، وهذه نتيجة طبيعية للانهزام الداخلي في نفوسهم حين رأوا أن أعداء الله تفوقوا في القوة المادية فانبهروا بهم، والمداهنة

والمجاملة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو، فليحذرهم المسلم، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا امتثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

٥- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين.

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

والبطانة: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه، لأنهم يستبطنون أمره، ويطّلعون منه على ما لا يطّلع عليه غيرهم.

فهم لا يتركون جهدهم فيما يورث الشر والفساد، ويودّون لكم ما يشقُّ عليكم من الضر والهلاك، واتخاذهم بطانة يفضي إلى اطلاعهم على أسرار المسلمين، وكشف عوراتهم ومعرفة كل صغير وكبير في حياتهم.

٦- طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به.

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٩].

وقال تعالى ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢١].

٧- مجالستهم والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله.

قال تعالى ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠].

٨- توليتهم أمراً من أمور المسلمين.

والولاية إعزاز لهم فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة فلا تجتمع هي ومعاداة الكافر أبداً.

٩- استئمانهم وقد خونهم الله.

قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥].

١٠- الرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزي بزيهم والفرح بأعيادهم وحضورها وتهنئتهم.

١١- البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وقد أهانهم الله وإعزازهم وقد أذلهم الله وتقريبهم.

١٢- معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم.

١٣- مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم.

١٤- تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم.

مثل السادة والحكماء وأهل الفخامة، والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعزة والتقدير، وهما مقصورتان على المؤمن، أما الكافر فله الذلة والمهانة.

١٥- التآمر معهم وتنفيذ مخططاتهم والدخول في أحلافهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال في صفهم.

وهذه الصورة هي من أخطر ما ابتليت به الأمة في هذا الوقت[1].

هذه بعض صور الموالاة وغيرها كثير، وكل هذه الصور هي سبب في فقد العزة التي تميز بها المسلمون منذ القدم واستعلوا بدينهم وافتخروا به الذي كان سبباً لعزتهم ورفعتهم ففتحوا الشرق والغرب وهابهم الفرس والروم.

رفيق صلاح الدين هل لك عودة   فإنَّ جيوشَ الروم تنهى وتأمُرُ

ولن يكون للمسلمين عز إلا بالرجوع إلى عقيدة الولاء للدين وأهله، والبراء من الشرك وأهله.

---

(١) هذه الصور نقلتها من كتاب الولاء و البراء من (١- ١٥) و للمزيد راجع الكتاب

ومن الأمور الواضحة في التاريخ الإسلامي الناصع أن من أكبر عوامل الانتصار والعزة بعد الإيمان بالله ورسوله الاعتزاز بالدين والفرح به، وهذا يصدقه قول الفاروق عمر رضي الله عنه «كنا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله»[١].

فالذلة والهوان في اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالاة كانت لغير الله.

قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦].

لتتذكر أخي المسلم أن موالاة الكفار والمشركين ذلٌّ وهوان في الدنيا، وخسارة وندامة يوم القيامة، ولتعلم بأن الإسلام أعزك ورفع مكانتك لأن وليك الله وموالاتك له وللمؤمنين، وهناك آيات كثيرة تخبرنا بأن ولينا سبحانه وتعالى ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦]. فالله مولانا وهو سيدنا وربنا ومالكنا وناصرنا، فلتستشعر هذا المعنى وأنت تقرأ هذه الآية.

---

(١) سبق تخريجه .

وليكن في ضميرك قوله تعالى ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٠] .

وقوله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨].

فالله مولانا جميعاً وهو نعم المولى ونعم النصير والناصر لنا في كل حال وفعال ومقال. قال تعالى ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٠]. فلتكن موالاتنا له سبحانه وتعالى ولعباده المؤمنين، لكي تغمرنا السكينة والطمأنينة، ونفرح بالبشرى، ويذهب عنا الحزن والخوف عندما نقرأ قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٢-٦٤].

وقال تعالى ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣١].

والولاء لله هو الحب الخالص والانقياد له والخضوع لأوامره، وهو العبودية المطلقة في جميع الأمور والشؤون، وهو اللجوء إليه والاتكال عليه والاستنصار به سبحانه.



المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، الإمام ابن حجر العسقلاني وعلق عليه الإمام ابن باز، دار المعرفة - بيروت.

٣- جامع العلوم والحكم، الإمام ابن رجب الحنبلي، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر - القاهرة١٣٨٢هـ.

٤- السيرة النبوية، ابن هشام، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٥- صحيح سنن ابن ماجة، تحقيق الإمام الألباني، مكتب التربية الغربي - الرياض، ط١/١٤٠٧هـ.

٦- مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٥، ١٤٠٣هـ.

٧- سنن أبي داود، للإمام أبو داوود، ط٢، ١٤٠٣هـ، مكتبة مصطفى الحلبي - مصر.

٨- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، حققه أحمد شاكر.

٩- موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرياصي، ط١، ١٤٠١هـ، دار الرائد العربي.

١٠- طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، ط١، ١٤٠٩هـ، دار ابن القيم.

١١- مدارج السالكين، ابن القيم، ج٢/ط٣، دار الحديث، القاهرة.

١٢- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، ط٢/١٤١٧هـ، المكتبة العصرية - بيروت.

١٣- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم - جدة، ط١٢، ١٤٠٦هـ.

١٤- فتح القدير، الإمام الشوكاني، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٥- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المبار كفـوري، ط٥، ١٤٢١هـ، دار السلام - الرياض.

١٦- الرسـول العربـي المربـي، د. عبـد الحميـد الهاشـمي، دار الهـدى - الرياض، ط٢ /١٤٠٥هـ.

١٧- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن آل الشيخ، ط٥، دار السلام- الرياض.

١٨- في ظلال المحبة، عبد الهادي وهبي، ط٢، ١٤١٤هـ، دار بن عفـان - الخبر.

١٩- الولاء بين منهاج الله والواقع، د. عدنان النحوي، ط١، ١٤١٢هـ، دار النحوي - الرياض

٢٠- معـالم الشـخصية الإسـلامية، د. عمـر الأشـقر، ط٤/ ١٤٠٤هـ، مكتبة الفلاح - الكويت.

٢١- معـارك الصعـود إلى تفسـير سـورة هـود، محمـد الأمـين الشـنقيطي، ط١/١٤٠٨هـ، دار المجتمع - جدة.

٢٢- القادسية ومعارك العراق، محمد باشميل، دار التراث - القاهرة.

٢٣- قبسات من الرسول، محمد قطب، وزارة المعارف، ط٩، ١٤٠٦هـ. الرياض.

٢٤- الثبات، د. محمد بن حسن الشريف، ط٥، ١٤٢١هـ، دار الأندلس الخضراء - جدة.

٢٥- الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، محمد الحمد، ط٢، ١٤١٧هـ، دار القاسم - الرياض.

٢٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد عبـد البـاقي، ط٤/١٤١٤هـ، دار المعرفة بيروت.

٢٧- موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، مجموعة من المختصين، مجلد رقم ٧. ط١، ١٤١٨هـ، دار الوسيلة جدة.

٢٨- مواقف نبوية في السياسة والتعامل الدبلوماسي للنبي صلى الله عليه وسلم د. معينة أحمد قصار، دار الشواف - الرياض ١٤١٦هـ ، ط١.

٢٩- مع الله، محمد الغزالي، ط٥/ ١٤٠١هـ، المكتبة الإسلامية - القاهرة.

٣٠- خلق المسلم، محمد الغزالي، دار القلم - دمشق، ط٦، ١٤٠٦هـ.

٣١- الولاء والبراء في الإسلام، د. محمد القحطاني، ط١، دار طيبة - الرياض.

٣٢- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ج١/ط١١/١٤٠٨هـ، دار الشروق - القاهرة.

٣٣- دراسات تربوية في الأحاديث النبوية، أ. د. محمد لقمان الأعظمي، ط١، ١٤١٧هـ. مكتبة العبيكان - الرياض.

٣٤- القاموس العربي الوسيط، ط١/١٩٩٧م، دار الراتب الجامعية- بيروت.

٣٥- رياض الصالحين، الإمام النووي، ط٥، ١٤٢١هـ، دار السلام - الرياض.

٣٦- صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، ١٤٠١هـ.

٣٧- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، ط٧، ١٤٠١هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.



قال تعالى ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ٣٥/١٠] من تدبر هذه الآية علم وأيقن واستقرت في قلبه العزة، لأن الله هو العزيز وهو المعز، يُعزّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء، فله العزة كاملة، ومنه وبه يعز كل عزيز، وهذه الحقيقة إذا استقرت في القلب تبدلت المعايير، وتغيرت المفاهيم، وترسخت قيمة العزة في النفوس، فأصبحت عزيزة كريمة ثابتة لا يهمها شيء ثابتة غير متزعزعة، نفوس لا تحركها الشهوات، ولا تضعف أمام المناصب والترقيات، فلا تنحني إلا لمعطي العزة وحده سبحانه. النفوس التي تستقر فيها هذه الحقيقة لا تعصف بها عواصف الشبهات، ولا مجاملات الجاه، ولا تهزها رياح الرغبات، ولا تضعفها قوة الأعداء مهما بلغت.



رقم الإيداع: ١٤٢٥ / ٢٢٦٩
ردمك: ١-٨٧١-٤٤-٩٩٦٠